

منهج ابن القيّم في دراسة عقائد اليهود

إعداد: مجدي بن عبد الله حسن أبو عويمر

تمهيد

نظرة مجملة في تاريخ اليهود

قبل الشروع في الموضوع رأيت من الضروري أن أمهد بعرض تاريخي سريع لحياة اليهود ونشأتهم قبل البدء بعرض عقائدهم من خلال منهج ابن القيم في بيانه لتلك العقائد، لا سيما وأن التاريخ اليهودي له أثر كبير في عقيدتهم بخلاف التاريخ الإسلامي الذي ليس له أثر في العقيدة الإسلامية، ويظن كثير من الناس وخاصة اليهود أن اليهودية ترجع تاريخياً إلى إبراهيم عليه السلام ديناً ونسباً باعتباره الجد الأول والأعلى لليهودية، والحقيقة التي أقرها في هذا البحث أن إبراهيم عليه السلام ليس له صلة باليهودية ولا بالتوراة فهو لم يكن يهودياً حتى ينسبوا اليهودية إليه بدليل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧]، وقوله أيضاً عز وجل: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إبراهيم وَإِسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠]، فاليهودية ما ظهرت ولا عرفت إلا بعد موسى عليه السلام وهذا ما سنبينه بعد قليل، أما السؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا يرجع اليهود بنسبهم ودينهم إلى إبراهيم عليه السلام؟

فهذا يرجع والله أعلم إلى أنهم يريدون أن يعطوا لنسبهم ودينهم عمقاً تاريخياً تمتد جذوره لتصل إلى إبراهيم عليه السلام ولذلك نراهم تارة يسمون أنفسهم بالعبرانيين، وتارة أخرى بالإسرائيليين كما هو معروف عند يهود اليوم، وعلى أية حال فإن أياً من هذه الأسماء تطلق اليوم فإنه ينصرف إلى الأذهان اليهود الذين يتمسكون الآن بالتوراة المحرفة في شتى أنحاء العالم وخاصة الذين يقيمون دولتهم المسماة (إسرائيل) ظلماً على أرض فلسطين علماً أن هذه الأسماء (العبري، الإسرائيلي، اليهودي) كلها ألفاظ متداخلة لكنها ليست متطابقة.

وسأتجاوز الحديث بشكل مفصل عن هذه المسميات تجنباً للإطالة وسأبدأ الحديث بشكل سريع وإيجاز شديد من عهد موسى عليه السلام باعتباره أهم شخصية دينية في بني إسرائيل.

أولاً: عهد موسى عليه السلام:

يعتبر موسى عليه السلام من نسل لاوي (ليفي) أحد أبناء يعقوب[1]، حيث أرسله الله هو وهارون عليهما السلام إلى بني إسرائيل يبلغانهم دعوة الله، داعينهم إلى إخلاص العبودية لله سبحانه إلا أنهم عصوهما؛ ولأجل شدة أذى فرعون لهم خرج بهم موسى -عليه السلام- من مصر إلى سيناء فسطروا مع موسى قصص العصيان

(١) وافي، علي عبد الواحد، (اليهودية واليهود) (ص١٠٤)، والبار، محمد علي، (المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم) (ص٥٨).

والعناد وقد ذكرها القرآن الكريم في آياته الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إسرائيل الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:١٤٨]، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥]، ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ الله لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة:٢١-٢٢]، ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، كما بينها أيضاً سفر الخروج، ومن ذلك الإصحاح (١٦/ ٢-٣) وقد كان آخر قصص عصيانهم عندما دعاهم موسى لدخول فلسطين وقتال أهلها ووعدهم بالنصر إلا أنهم تقاعسوا عن ذلك، فكتب الله عليهم التيه أربعين سنة، وفي هذه الفترة مات هارون ثم موسى عليهما السلام[1]، وتولى يوشع بن نون قيادة بني إسرائيل،فاستطاع أن يدخل بالجيل الجديد منهم أرض فلسطين، حيث بدأوا حياة جديدة تنعم بالاستقرار وقد كان رؤساؤهم في صدر هذه المدة من القضاة[2].

ثانياً: عهد القضاة:

وهو العصر الذي أعقب موت يوشع بن نون عليه السلام، وفيه ارتد بنو إسرائيل عن دينهم وعقيدتهم إلى الوثنية وتمسكوا بعادات وتقاليد مخالفة لحياتهم الدينية والاجتماعية، مما حدا بعدد من الزعماء المحليين لهم وهم (القضاة)، بالتصدي لذلك

---

(١) شلبي، أحمد، (مقارنة الأديان-اليهودية) (ص٧٨)، ووافي، علي عبدالواحد، (اليهودية واليهود) (ص١٠٥).

(٢) وافي، علي عبدالواحد، (اليهودية واليهود) (ص١٠٦).

الإنحدار محاولين على مدى أكثر من قرنين من الزمان أن يمنعوا المجتمع العبري من الإنزلاق في الكفر والفجور[1] وقد اتسمت هذه الفترة أيضاً بكثرة الغارات والغزوات من قبل الفلسطينيين وغيرهم على الإسرائيليين، فقد كان الفلسطينيون أصحاب قبضة واستعلاء أتاح لهم ذلك إلحاق الهزيمة بالإسرائيليين والاستيلاء على تابوتهم الذي يحفظون فيه مدوناتهم الدينية[2]، وسفر القضاة حافل بذكر هذه الأحداث وقد فصلها دروزة في كتابه[3].

ثالثاً: عهد الملوك وينقسم إلى قسمين:

أ- عهد الملوك الأول: وملوك هذا الدور كما يذكر دروزة[4] شاؤول وابنه اشبوشت ثم داود وأبشالوم بن داود ثائراً في حياة أبيه وسليمان بن داود بعد أبيه وسيرتهم مذكورة في الإصحاحات الحادي عشر فما بعد من سفر صموئيل الثاني.

وفي هذا العصر وبعد أن عجز القضاة عن صد شوكة العمالقة[5]، عمد الشعبّ الإسرائيلي إلى نبي لهم لم يعرف اسمه إلا أنه قيل -وحسب المصادر اليهودية- أنه

(١) عبدالعليم، مصطفى كمال وراشد، سيد فرج في كتابهما (اليهود في العالم القديم) (ص٧١)، وظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص٣٤).

(٢) دروزة، محمد عزة، (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم) (ص١٣٣-ص١٣٥) بتصرف، وعبدالعليم، مصطفى كمال (اليهود في العالم القديم) (ص٧٢).

(٣) دروزة، محمد عزة، (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم) (ص١٢٢)، وما بعدها حيث يورد بتوسع تفاصيل هذه الحقبة.

(٤) دروزة، محمد عزة، (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم) (ص١٣٨).

(٥) العمالقة: هم الفلسطينيون يومئذ ولكنهم لم يكونوا على دين صحيح، وأصل لفظ العمالقة مجهول والغالب أنه منحوت من اسم قبيلة عربية قديمة، وكان البابليون يطلقون عليهم اسم ماليق وأضاف إليها اليهود لفظ (عم) بمعنى الشعب، انظر: غربال، محمد شفيق، (الموسوعة العربية الميسرة) (ص١٢٣٥).

(صموئيل)[1] قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسرائيل مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦]، وقد استجاب لهم النبي وملك عليهم طالوت (شاؤل)، وكان داود عليه السلام، أحد رجاله، وقد برز في الجانب الآخر (في الجيش الفلسطيني المعادي) جالوت (جوليان)، وكان قوياً إلا أن داود عليه السلام الذي اصطفاه الله ليكون نبياً تغلب عليه وأصبح ملكاً، قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقد فتح داود مدينة القدس ٩٧٧ق.م.[2] ونقل إليها التابوت وبدأ بالإعداد لبناء المعبد إلا أنه مات واختار الله بعده سليمان عليه السلام ليكون ملكاً نبياً، كأبيه داود عليهما السلام حيث استمر حكمه أربعين سنة وهي نفس فترة أبيه داود في الملك[3].

ويعتبر عصر سليمان من أزهى العصور بالنسبة لبني إسرائيل، إذ في عهده تم إنجاز المعبد والذي يسميه اليهود الهيكل[4].

---

(١) عبدالعليم، مصطفى كمال، (اليهود في العالم القديم) (ص٧٢)، والبار، محمد علي في كتابيه: (ا لله والأنبياء في التوراة والعهد القديم) (ص٣٢١)، و(المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم) (ص٧٦)، مصطفى، عبد العزيز، (قبل أن يهدم الأقصى) (ص٦٤)، وظاظا، حسن، (الفكر الديني اليهودي) (ص٣٥).

(٢) مصطفى، عبد العزيز، (قبل أن يهدم الأقصى) (ص٦٥).

(٣) البار، محمد علي، (المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم) (ص٨٦)، وأيضاً كتابه (ا لله والأنبياء في التوراة والعهد القديم) (ص٤٠٩)، ومصطفى، عبد العزيز (قبل أن يهدم الأقصى) (ص٦٥).

(٤) الهيكل: وهو في الأصل المعبد التابع لقصر سليمان عليه السلام وقد بدأ بالإعداد لبنائه داود عليه السلام حيث جمع له الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وتمثل النجمة السداسية (قاعدته ولهذا اتخذها اليهود شعاراً لهم سموها باسم داود عليه السلام وقد تم إنجاز المعبد في عهد سليمان عليه السلام ولهذا يقال هيكل سليمان، وهو عند اليهود بمنزلة الكعبة عند المسلمين، فهو محط آمالهم وأحلامهم وقد بني ليسكن =

وبعد وفاة سليمان -عليه السلام- تولى ابنه رحبعام، وبايعه من الأسباط اثنان فقط هما (سبط يهوذا) و(سبط بنيامين) وكانت البيعة في أورشليم[1] ولما اتجه رحبعام

فيه الرب على حد زعمهم (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) كما أنهم يزعمون أن المسيح (المسيح الدجال) سيظهر وينزل فيه، والهيكل في تصميمه يشبه الهياكل الكنعانية المنتشرة في بلاد الشام وهو مقسم إلى صالة ثم البهو المقدس ثم قدس الأقداس وهو المذبح ومكان التابوت الذي يجلس فيه رب الجنود، وقد تحطم الهيكل مرتين في التاريخ في الأولى على يد نبوخذ نصر سنة (٥٨٦ق.م.) ثم أعيد بناؤه على يد الطوائف التي عادت من بابل سنة (٥٣٨ق.م.) بمساعدة الملك الفارسي (كورش Cyrus)، وفي سنة ٧٠ بعد الميلاد تم تحطيمه مرة ثانية على يد القائد الروماني تيطس وما زال اليهود إلى يومنا هذا يتطلعون لبناء الهيكل الثالث على أنقاض المسجد الأقصى المبارك لأنهم يعتبرون حائط البراق والذي يسمونه (حائط المبكى) هو جزء من حائط الهيكل، ويعتقد نصارى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا أن المسيح سينزل فيه ولهذا فهم يمدون اليهود بالدعم المستمر لإزالة المسجد الأقصى وبناء الهيكل حتى يتمكن الرب (المسيح الدجال) من النزول إلى هيكله. انظر: البار، محمد علي (الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم) (ص٤١٧-ص٤٢٠) بتصرف، وشلبي، أحمد، (مقارنة الأديان-اليهودية) (ص٢٠٨-ص٢١٢) بتصرف، وهنا لا بد أن نذكِّر بحقيقة هامة وهي أنه لا يوجد دليل على أن الهيكل كان في نفس مكان المسجد الأقصى بدليل أن المسجد الأقصى موجود قبل عهد داود وسليمان عليهما السلام بل قبل عهد إبراهيم عليه السلام بدليل الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (ك/ ٦٠ب/ ١٠ح/ ٣٣٦٦) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله. أي مسجد وضع في الأرض أوّل؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت كم بينهما؟ قال أربعون سنة ...) ومن المعلوم أن المسجد الحرام موجود من زمن آدم عليه السلام بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً..﴾ [آل عمران:٩٦]، وكلمة وضع للناس مبني للمجهول وآدم من الناس إذاً فهو موجود من زمنه عليه السلام ثم إن قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:٣٧] فكلمة ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ تدل على أن البيت كان موجوداً يوم وضع إبراهيم ابنه إسماعيل رضيعاً ونصوص القرآن تثبت أن رفع القواعد من البيت كان بعد أن وصل إسماعيل سن الشباب والذي يكون فيه قادراً على مساعدة أبيه في تجديد البناء وهذا يدل على أن المسجد الحرام موجود من قبل وبما أن المدة بينه وبين المسجد الأقصى أربعون سنة فهذا يعني أن المسجد الأقصى موجود من زمن آدم عليه السلام وبهذا لا يعقل أن يكون الهيكل مكان المسجد الأقصى كما يعتقد اليهود إذ لاقتضى ذلك أن يكون عهد داود وسليمان قبل آدم عليه السلام وهذا من المحال.

(١) شلبي أحمد، (مقارنة الأديان-اليهودية) (ص٨٩)، ومصطفى، عبدالعزيز، (قبل أن يهدم الأقصى) (ص٦٥)، والبار، محمد علي، (المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم) (ص٨٨)، وشنودة، زكي، (المجتمع اليهودي) (ص٩).

إلى الشمال لأخذ البيعة من باقي الأسباط رفضوا أن يبايعوه وبايعوا (يربعام بن ناباط)[1] وهكذا انقسمت مملكة سليمان إلى مملكتين صغيرتين متحاربتين هما:[2]

١- مملكة إسرائيل في الشمال: وعاصمتها السامرة شكيم (نابلس) ويعتبر يربعام بن ناباط من أشهر ملوكها حيث كان أغلب الأسباط في هذه المملكة وقد تحطمت هذه المملكة وانتهت على يد (سرجون) ملك الآشوريين (٧٢٠ ق.م) وفر من بقي منهم إلى الجبال وهم الذين يعرفون بالسامريين في نابلس حتى الآن.

٢- مملكة يهوذا في الجنوب: وهي مكونة من سبطي يهوذا وبنيامين وعاصمتها أورشليم (القدس) وحكامها من نسل سليمان بن داود عليه السلام، والتي فيها الهيكل وأشهر ملوكها رحبعام بن سليمان وقد استمرت إلى أن حكمها نبوخذ نصر (بختنصر) (٥٨٦ق.م) ودمر فيها الهيكل لأول مرة وسبى أهلها إلى بابل مع بقاء القليل منهم والتاريخ يحدثنا أن اليهود لم تقم لهم قائمة بعد هذا التدمير إلا في ١٩٤٨م على أرض فلسطين التي لم يمتلكوها من قبل، وهي التي تعرف اليوم بـ (دولة إسرائيل) والتي يجتمعون إليها من كل بقاع الأرض كما يجتمع الناس في الأسواق

---

(١) يربعام بن ناباط: أخطأ الدكتور أحمد شلبي في كتابه (مقارنة الأديان- اليهودية) (ص٨٩) عندما اعتبر أن يربعام هو ابن سليمان عليه السلام وقد وقع في نفس الخطأ عبدالعزيز مصطفى في كتابه (قبل أن يهدم الأقصى) (ص٦٧) ذلك أن يربعام هو أخو رحبعام بن سليمان والصحيح أن يربعام هو ابن نابـاط من سبط افرايم بن يوسف عليه السلام وقد كان يربعام عبداً عند سليمان واستطاع أن يقود ثورة ضد سليمان عليه السلام، إلا أن سليمان عليه السلام تمكن من القضاء عليها وفر يربعام إلى مصر ولما مات سليمان عاد يربعام بدعم من ملك مصر (شيشنق) واستطاع أن يغري عشرة من أسباط بني اسرائيل كون بهم مملكة اسرائيل في شمال فلسطين، انظر: البار، محمد علي، (المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم) (ص٨٨-ص٩١) بتصرف، وعبدالعليم، مصطفى كمال، (اليهود في العالم القديم) (ص٩١-٩٥)، بتصرف، والكتاب المقدس - الملوك الأول (١١: ٢٦-٤٠) حيث يذكر قصة يربعام بن نابـاط وثورته ضد سليمان وفراره إلى مصر وعودته بعد موت سليمان .. الخ.

(٢) البار، محمد علي في كتابيه (المدخل لدراسة التوراة) (ص٨٨)، و(الله والأنبياء) (ص٤٢٥)، ومصطفى، عبد العزيز، (قبل أن يهدم الأقصى)، (ص٦٧)، وشنودة، زكي، (المجتمع اليهودي) (ص٩-ص١١) بتصرف، وعبد العليم، مصطفى كمال (اليهود في العالم القديم) (ص٨٨).

العامة التي ما تلبث أن تنفض وتنتهي ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]، وإنني أؤكد أن سوق اليهود القائم على أرضنا في فلسطين سينتهي على أيدي المسلمين المخلصين، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبدالله هذا يهودي ورائي فاقتله»[1] وكلنا مدعوون لفض هذا السوق قبل إقامة هيكلهم المزعوم الثالث وإلا فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم﴾ [محمد:٣٨].

المبحث الأول

أساس عقيدة اليهود

المطلب الأول

نقد ابن القيم لعقيدة الألوهية عند اليهود

إن عقيدة الألوهية الحقة هي عقيدة التوحيد التي جاء بها جميع الرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه وهي تمثل الركن الأساسي في الدين ولهذا كانت دعوة الأنبياء جميعاً لأقوامهم قوله تعالى: ﴿اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]، توحيد خالص لله تعالى، وعقيدة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]، ورسالة موسى عليه السلام، شأنها شأن غيرها من رسالات السماء دعت إلى توحيد الله وإفراده بالعبودية فقال تعالى مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (صحيح البخاري)، (٤/ ١١٤) كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود، حديث رقم (٢٩٢٥) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، و(٢٩٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

* إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٤-١٥].

ثم إن الله تعالى قد أخذ على البشرية جمعاء عهداً بأن يعترفوا له بالوحدانية وذلك عند قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، إلا أن بني إسرائيل سرعان ما نكثوا العهد وأشركوا بالله الأحد وكان بداية ذلك عندما جاوز موسى بهم البحر ورأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم فقالوا: ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨].

وهنا يظهر منهج ابن القيم رحمه الله في بيانه لموقف اليهود من عقيدة الألوهية والذي يبين فيه مخالفة اليهود لمنطق العقل السليم، حيث أنهم نسبوا إلى الله تعالى صفات النقص والمشابهة وغير ذلك مما لا ينبغي وصفه بها، وهو تعالى منزه عن ذلك كل التنزيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وقد استعان ابن القيم رحمه الله بالأدلة العقلية في بيان بطلان وفساد أقوال اليهود معتمداً على النصوص النقلية في تدعيم أقواله سواء كانت هذه النصوص من القرآن الكريم أو حتى من كتب اليهود أنفسهم، ففي معرض الحديث عن طلب بني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهاً بعد أن نجاهم الله من فرعون ذلك الطلب الذي يدل على جهالتهم مما دفع موسى عليه السلام أن يرد عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَـؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٣٩].

ويتساءل ابن القيم مقرراً جهالة بني إسرائيل قائلاً: «فأي جهل فوق هذا؟ والعهد قريب، وإهلاك المشركين أمامهم، بمرأى من عيونهم فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً، طلبوا من مخلوق أن يجعل لهم إلهاً مخلوقاً وكيف يكون الإله مجعولاً؟ فإن الإله هو الجاعل لكل ما سواه والمجعول مربوب مصنوع، فيستحيل أن

يكون إلهاً، وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذ إله مجعول فكل من اتخذ إلهاً غير الله فقد اتخذ إلهاً مجعولاً»[1]. ويتابع ابن القيم في هذه القضية مقرراً أن اليهود لم يعرفوا التوحيد بالله ولا تنزيهه، وظنوه كأي إله من الآلهة التي تعبد من دون الله فهم بعدما شاهدوا تلك الآيات الباهرات طلبوا إلهاً فلم يعرفوا حقيقة الإله ولا أسماءه وصفاته ونعوته ودينه؟ ولو عرف هؤلاء معبودهم، ورسوله لما قالوا لنبيهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥][2].

ولقد أشار ابن القيم أيضاً إلى شركهم وعدم إيمانهم بإله واحد مبيناً أنه لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه لم يمهلوه أن عبدوا العجل الذي صنعته أيديهم من ذهب وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه ويصليه النار، ويدقه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويقلبه بيده ظهراً لبطن، ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى فنسبوا موسى عليه السلام إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى[3].

ويرد عليهم ابن القيم قائلاً: «فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب، محتاجاً إلى سبك النار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد، مقلباً في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم، وجعلوه إله موسى ونسبوه إلى الضلال حيث ذهب يطلب إلهاً غيره»[4]. ولم يكتف اليهود بذلك فجعلوا لله ولداً وقالوا أن عزيراً ابن الله وأنهم أيضاً أبناء الله كما جاء في سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

---

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٧٧. ٢٧٨) تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٥٧٨)، تحقيق: د.محمد الحاج.

(٣) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٧٨)، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.

(٤) نفس المرجع السابق (٢/ ٢٧٩).

وما جاء في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨].

وابن القيم رحمه الله على مراد شيخه ابن تيمية في رده على زعم اليهود حيث أبطل ابن تيمية رحمه الله هذا الإدعاء منهم بالدليل في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [المائدة:١٨]. فلو كانوا أبناء الله وأحباءه لغفر لهم الذنوب ولم يعذبهم بها[١].

ويستمر ابن القيم في نقد اليهود فيقول: «وأما فريتهم على الله ورميهم لرب العالمين ورسله بالعظائم فكثيرجداً كقولهم: «إن الله استراح في اليوم السابع من خلق السموات والأرض»[٢]. فأنزل الله تعالى تكذيبهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، وقولهم: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة:٦٤].

وقولهم: «إن الله بكى على الطوفان حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة»[٣]. وقولهم: «أن الله تصارع مع يعقوب فضرب به يعقوب الأرض»[٤]، وقولهم في بعض دعاء صلواتهم: «إنتبه كم تنام يا رب استيقظ من رقدتك»[٥] فتجرأوا على رب العالمين بهذه المناجاة القبيحة وكأنهم يخبرونه أنه قد اختار الخمول لنفسه فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وكذبهم على لسان نبيه بقوله:

---

(١) حربي، محمد (ابن تيمية وموقفه من أهم الفرق والديانات في عصره) (ص٣٦١)، وما بعدها حيث أضاف ردودا أخرى لمن أراد الاستزادة.

(٢) التوراة، التكوين (٢ :١-٤)

(٣) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤١٩)، تحقيق: د.محمد الحاج.

(٤) التوراة، التكوين (٣٢ :٢٥-٢٧).

(٥) المزامير (٣٥ :٢٣).

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١]، وقوله مخاطباً موسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣].

وعندهم في توراتهم: «أن موسى صعد الجبل مع مشايخ أمته فأبصروا الله جهرة وتحت رجليه كرسي منظره كمنظر البلور، ويسمونه بلغتهم (السبقير) وهذا من كذبهم وافترائهم على الله»[١].

وذكر ابن القيم أيضاً أن اليهود كانوا يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يحرمون عليهم ويحلون لهم فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم، ولا يلتفتون: هل ذلك التحريم والتحليل من عند الله تعالى أم لا؟ ثم ذكر قول عدي بن حاتم[٢]: «أتيت رسول الله ﷺ فسألته عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، فقلت يا رسول الله ما عبدوهم. فقال: حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إياهم» رواه الترمذي[٣]. وغيره.

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤١٨-ص٤٢٠)، تحقيق: د.محمد الحاج .. بتصرف.

(٢) عدي بن حاتم: ولد الجواد المشهور، وينتهي نسبه إلى طيئ الطائي. كان من رؤساء النصارى الذين دخلوا في الإسلام، وقد كان الرئيس المطاع في قومه، صحابي جليل. وروى عن النبي ﷺ، يقول عن نفسه: «ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء» وقد جاء بصدقات قومه إلى أبي بكر الصديق بعد وفاة النبي ﷺ، حضر فتح المدائن، وشهد مع علي رضي الله عنه الجمل وصفين ونهروان، ومات بعد ذلك بالكوفة سنة ٦٨هـ. وقيل أنه عاش مائة وثمانين سنة. العسقلاني، أحمد بن حجر (تهذيب التهذيب) (٧/ ١٤٧) تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، وابن القيم (هداية الحيارى) (ص٢٦٥) بتحقيق د.محمد الحاج.

(٣) أشار ابن القيم إلى أن هذا النص من رواية الترمذي وغيره وذلك في كتابه (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٤) والصحيح أن رواية الترمذي كما وقفت عليها هي: عن عدي بن حاتم قال: «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ من سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» محمد بن عيسى (الجامع الصحيح (٥/ ٢٧٨)، كتاب تفسير القرآن. باب ومن سورة التوبة، حديث رقم (٣٠٩٥)، وذكر الترمذي بأنه حديث غريب.

ثم عقب ابن القيم قائلاً: «وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان الذي يتخذ من لم تضمن له عصمته نداً لله يحرم عليه ويحلل له»[1].

وابن القيم رحمه الله لم يتوسع في بيان عقيدة الألوهية عند اليهود لأنه ركز اهتمامه على إثبات نبوة محمد ﷺ وأنه خاتم الرسل والأنبياء كما ركز جهده في الدفاع عن عقيدة المسلمين بترسيخ قواعد التوحيد الخالص في نفوس الناس مما جعله يترك التفصيل في اعتقاد اليهود بالخالق سبحانه وتعالى، ونجد هذا واضحاً إذا تفحصنا كتابه هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. ومما سبق يتضح لنا أن اليهود لا يعبدون الله عز وجل حيث أنهم وقعوا في الشرك مرات ومرات ومن صور ذلك أيضاً أنهم عمدوا إلى أحد آلهة كنعان وصاغوه إلهاً لهم وأطلقوا عليه (يهوه) واعتبرت التوراة أن يهوه هو الذي أوحى إلى موسى هذه التوراة[2] وتروي التوراة أن يهوه هو إله آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وفي موضع آخر تروي التوراة أن يهوه هواسم للموضع الذي ذبح فيه إبراهيم الكبش، والواقع أن يهوه هو أحد الآلهة الوثنية التي كان يعبدها بنو إسرائيل من بين الآلهة المتعددة التي كان يعبدها سكان آسيا[3]، وهذا هو ديدن اليهود يعمدون دائماً إلى الشرك فيتخذون الأصنام والأحبار والرهبان أرباباً من دون الله بالإضافة إلى أنهم يصفون الله بصفات لا تليق بجلاله تعالى فشبهوه بالبشر حتى كأنهم لم يوهبوا نعمة التفكير والنظر فصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يلَيْتَنَا أَطَعْنَا الله وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ * وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ * رَبَّنَا اتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ [الأحزاب:٦٦-٦٨].

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٤)، تحقيق: طه سعد.

(٢) عبدالحافظ، محمد أحمد دياب (أضواء على اليهودية من خلال مصادرها) (ص٥١).

(٣) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

المطلب الثاني

نقد ابن القيم لعقيدة النسخ والبداء عند اليهود

لقد كان منهج ابن القيم رحمه الله في بيانه لعقيدة النسخ والبداء عند اليهود يسير وفق منهج القرآن بما يستعين به من أدلة نقلية من وحي آيات الكتاب الكريم في بيان جواز النسخ في الشرائع، واستخدامه أيضاً لمنهج التحليل والنقد وأحياناً أخرى بتناوله للمنهج العقلي الذي يدلل به على بطلان قولهم بعدم جواز النسخ.

وقبل أن نبحر في منهجه رحمه الله إزاء هذه القضية يجدر بنا أن نتعرف على معنى النسخ في اللغة والاصطلاح كما وضحه العلماء المسلمون.

النسخ في اللغة: النسخ يأتي بمعنى الإزالة[1] ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ الله ايَاتِهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج:٥٢]، ومنه قولهم: نسخت الشمس الظل ونسخ الشيب الشباب.

ويأتي النسخ أيضاً بمعنى التبديل[2] ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل:١٠١]، ويأتي أيضاً بمعنى النقل والتحويل كالنقل من موضع إلى موضع وكتناسخ المواريث يعني تحويلها من قوم إلى قوم[3]

النسخ في الاصطلاح: وقد عرف بتعاريف كثيرة، ولسنا هنا بصدد استعراضها لأن الهدف هو الوقوف على المعنى الاصطلاحي الذي يصور لنا النسخ في الشرع حيث

---

(١) الزركشي، محمد بن عبدالله (البرهان في علوم القرآن) (٢/ ٢٩)، والزرقاني، محمد عبدالعظيم، (مناهل العرفان) (٢/ ١٧٥).

(٢) الزركشي، محمد بن عبدالله (البرهان في علوم القرآن) (٢/ ٢٩).

(٣) الزركشي، محمد بن عبدالله (البرهان في علوم القرآن)، والزرقاني، محمد عبدالعظيم (مناهل العرفان) (٢/ ١٧٥).

عرف بأنه: (رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي)[1].

الفرق بين النسخ والبداء:

البداء (بفتح الباء) يطلق في لغة العرب على معنيين متقاربين أحدهما:

الظهور بعد الخفاء ومنه قوله سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية:٣٣]، والآخر: نشأة رأي جديد لم يكن موجوداً، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف:٣٥]، أي نشأ لهم في يوسف رأي جديد هو أن يسجن سجناً وقتياً، وهذان المعنيان متقاربان للبداء وكلاهما مستحيل على الله تعالى[2].

قال الشهرستاني: «واليهود تدعي أن الشريعة لا تكون إلا واحدة وهي ابتدأت بموسى، وتمت به، فلم تكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية ولم يجيزوا النسخ أصلاً، قالوا: فلا يكون بعده شريعة أصلاً لأن النسخ في الأوامر «بداء» ولا يجوز البداء على الله»[3] وهنا نقول إذا كان اليهود لا يؤمنون بالنسخ فلماذا يقولون أن الله عز وجل قد أمر إبراهيم أن يذبح ابنه اسحاق ثم بعد ذلك أنزل له كبشاً، أليس هذا بنسخ!!؟.

ومع ذلك فقد استبعد اليهود وقوع النسخ في الشريعة، فمنهم من أبطله ولم يجعله ممكناً ومنهم من أجازه إلا أنه لا يمكن وقوعه، قال ابن حزم: «وعمدة حجة من أبطل النسخ أن قالوا: إن الله عز وجل يستحيل منه أن يأمر بالأمر ثم ينهى عنه ولو كان كذلك لعاد الحق باطلاً والطاعة معصية والباطل حقاً والمعصية طاعة»[4]. وقد رد ابن

---

(١) الزرقاني، محمد عبدالعظيم، (مناهل العرفان) (٢/ ١٧٦).

(٢) الزرقاني، محمد عبدالعظيم، (مناهل العرفان) (٢/ ١٨٠، ١٨١).

(٣) الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم، (الملل والنحل) (١/ ٢٥١)، تحقيق أمير مهنا وعلي فاعور.

(٤) ابن حزم، علي بن أحمد، (الفصل في الملل والأهواء والنحل) (١/ ١٨٠) تحقيق د.محمد إبراهيم نصر، وعبدالرحمن عميرة.

حزم على هذه الحجة واعتبرها ضعيفة لا تقوم على ساق قائلاً:[1] «من تدبر أفعال الله كلها، وجميع أحكامه وآثاره تعالى في هذا العالم تيقن بطلان قولهم هذا لأن الله تعالى يحيي ثم يميت ثم يحيي وينقل الدولة من قوم أعزة فيذلهم إلى قوم أذلة فيعزهم، ويمنح من شاء ما شاء من الأخلاق الحسنة والقبيحة: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

وللدلالة على بطلان قول اليهود بإنكار النسخ، سار ابن القيم وفق ما يلي:

أولاً: منهج القرآن:

وقد عارض ابن القيم إنكار اليهود للنسخ وذلك بالاستعانة بما ورد في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٦-١٠٧].

فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء ويثبت فهكذا أحكامه الدينية الأمرية ينسخ منها ما يشاء ويثبت منها ما يشاء»[2]

وقد عارضهم ابن القيم رحمه الله حينما قالوا أن الرب محجور عليه في نسخ الشرائع حيث حجروا عليه سبحانه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية ترساً لهم في جحد نبوة محمد ﷺ وقرروا ذلك بأن النسخ يستلزم البداء وهو على الله محال، فأورد ابن القيم دليلاً من كتاب الله تعالى يكذبهم فيما ادعوه، قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِـلاًّ لِّبَنِي إسرائيل إِلاَّ مَا حَرَّمَ إسرائيل عَلَى

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٨٠).

(٢) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٩-٣٠٠) تحقيق طه عبدالرؤوف سعد.

نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٩٣-٩٥].

ومن خلال هذه الآية يستدل ابن القيم رحمه الله على بيان كذبهم الصريح في إبطال النسخ مبيناً أن الله سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلاً لبني إسرائيل، وقبل نزول التوراة، سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه، ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل التي كانت حلالاً لبني إسرائيل، وهذا محض النسخ، فقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك، ثم قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ هل تجدون فيها أن إسرائيل حرّم على نفسه ما حرمته التوراة عليكم؟أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة، وإذا كان إنما حرم هذا وحده وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيراً منه وظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع، والحجر على الله تعالى في نسخها[1].

ثانياً: منهج التحليل:

وقد استخدم ابن القيم رحمه الله منهج التحليل والنقد في رده على الأمة الغضبية[2] حينما قالوا: «أن التوراة لم تأت بإباحة محظور وإنما حظرت أموراً كانت مباحة من قبل، والنسخ الذي ننكره ونمنع منه هو ما أوجب إباحة محظور، لأن تحريم

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٥)، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.

(٢) كثيراً ما يطلق عليهم هذا اللفظ استناداً لقول النبيﷺ اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون أخرجه الترمذي، والحديث صحيح.

الشيء إنما هو لأجل ما فيه من المفسدة»[1].

ثالثاً: منهج النقد:

وكان رد ابن القيم بتفكيك هذا النص ونقده وذلك بقوله: إن إباحة الشيء في الشريعة تابع لعدم مفسدته، إذ لو كانت فيه مفسدة راجحة لم تأت الشريعة بإباحته، فإذا حرمته الشريعة الأخرى وجب قطعاً أن يكون تحريمه فيها هو المصلحة كما كان إباحته في الشريعة الأولى هو المصلحة، فإن تضمن إباحة الشحوم المحرمة في الشريعة الأولى إباحة المفاسد -وحاشا لله- تضمن تحريم المباح في الشريعة الأولى تحريم المصالح وكلاهما باطل قطعاً.

ويتابع ابن القيم نقده لما قالوا قائلاً: لا يخلو المحرم إما أن يكون تحريمه لعينه وذاته بحيث تمنع إباحته في زمان من الأزمنة، وإما أن يكون تحريمه لما تضمنه من المفسدة في زمان دون زمان ومكان دون مكان، وحال دون حال.

فإن كان الأول، لزم أن يكون ما حرمته التوراة محرماً على جميع الأنبياء في كل زمان ومكان، من عهد نوح إلى خاتم الأنبياء عليهم السلام.

وإن كان الثاني، ثبت أن التحريم والاختلاف تابعان للمصالح وإنما يختلفان باختلاف الزمان والمكان والحال، فيكون الشيء الواحد حراماً في ملة دون ملة وفي وقت دون وقت وفي مكان دون مكان.

ألا ترى أن تحريم السبت لو كان لعينه لكان حراماً على إبراهيم ونوح وسائر النبيين؟

وكذلك ما حرمته التوارة من المطاعم والمناكح وغيرها لو كان حراماً لعينه وذاته لوجب تحريمه على كل نبي وفي كل شريعة.

---

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٨).

ويختم ابن القيم رحمه الله رده ونقده قائلاً: «إذا كان الرب تعالى لا حجر عليه بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ويبتلي عباده بما يشاء، ويحكم ولا يحكم عليه، فما الذي يحيل عليه ويمنعه أن يأمر أمة بأمر من أوامر الشريعة ثم ينهى أمة أخرى عنه أو يحرم محرماً على أمة ويبيحه لأمة أخرى»؟![1]

رابعاً: منهج العقل:

وفي موضع آخر نجد الإمام ابن قيم الجوزية يستخدم المنهج العقلي ويستدل به على جواز النسخ وبطلان قولهم بعدمه، ويظهر هذا عندما يطرح عليهم سؤاله الذي يقول فيه للأمة الغضبية: هل تقرون أنه كان قبل التوراة شريعة أم لا؟ فهم لا ينكرون أن يكون قبل التوراة شريعة فيقال لهم: فهل رفعت التوراة شيئاً من أحكام تلك الشرائع المتقدمة أم لا؟! فإن قالوا: لم ترفع شيئاً فقد جاهروا بالكذب والبهت، وإن قالوا قد رفعت بعض الشرائع المتقدمة فقد أقروا بالنسخ قطعاً[2] ومن الملاحظ في عرض ابن القيم لمسألة النسخ أنه نقل كثيراً من الحجج عن السموأل من كتابه (إفحام اليهود) (ص٨٦) وما بعدها، وكان الرد على تلك الحجج وفق المنهج العقلي ومن ذلك القول لهم: هل أنتم اليوم على ما كان عليه موسى عليه السلام؟ فإن قالوا: نعم، قلنا أليس في التوراة أن من مس عظماً أو وطئ قبراً أو حضر ميتاً عند موته فإنه يصير من النجاسة بحال لا مخرج له منها إلا برماد البقرة التي كان الإمام الهاروني يحرقها!؟ فلا يمكنهم إنكار ذلك..

فنقول لهم: هل أنتم اليوم على ذلك؟ فيقولون: لا نقدر عليه، فنقول لهم: لم جعلتم أن من مس العظم والقبر والميت طاهر يصلح للصلاة والذي في كتابكم خلافه؟ فإن قالوا: لأنا عدمنا أسباب الطهارة وهي رماد البقرة والإمام المطهر المستغفر، فيقال لهم: فهل أغناكم عدمه عن فعله، أو لم يغنكم؟ فإن قالوا: أغنانا. قيل

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٨-٢٩٩) بتصرف، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.
(٢) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٦).

لهم: قد تبدل الحكم الشرعي من الوجوب إلى إسقاطه لمصلحة التعذر، وكذلك تبدل الحكم الشرعي بنسخه لمصلحة النسخ فإنكم إن بنيتم على اعتبار المصالح والمفاسد في الأحكام فلا ريب أن الشيء يكون مصلحة في وقت دون وقت وفي شريعة دون أخرى، كما كان تزويج الأخ بالأخت مصلحة في شريعة آدم عليه السلام ثم صار مفسدة في سائر الشرائع، وكذلك إباحة العمل يوم السبت كان مصلحة في شريعة إبراهيم عليه السلام ومن قبله في سائر الشرائع ثم صار مفسدة في شريعة موسى عليه السلام، وأمثال ذلك كثيرة..

وإن قلتم لا نستغني في الطهارة عن ذلك الطهور فقد أقررتم بأنكم الأنجاس أبداً ما دمتم لا تقدرون على سبب الطهارة، فإن قالوا: نعم الأمر كذلك، قيل لهم: فإذا كنتم أنجاساً على مقتضى أصولكم فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام اعتزالاً تفرطون فيه إلى حد أن أحدكم لو لمس ثوبه ثوب المرأة لاستنجستموه مع ثوبه. فإن قلتم ذلك من أحكام التوراة قيل لكم ليس في التوراة أن ذلك يراد به الطهارة، فإذا كانت الطهارة قد تعذرت عندكم والنجاسة التي أنتم عليها لا ترتفع بالغسل فهي إذاً أشد من نجاسة الحيض، ثم إنكم ترون أن الحائض طاهر إذا كانت من غير ملتكم ولا تنجسون من لمسها ولا الثوب الذي تلمسه فتخصيص هذا الأمر -أعني نجاسة الحيض بطائفتكم- مما ليس في التوراة فهذا كله منكم نسخ أو تبديل![1]

وهناك من الأمور الكثيرة التي نقلها ابن القيم عن السموأل حول عقيدة اليهود في النسخ والبداء وطريقته في إبطال قولهم بعدم جواز النسخ ومن ذلك أيضاً قوله: «ومن العجب أن هذه الأمة الغضبية تحجر على الله تعالى أن ينسخ ما يشاء من شرائعه وقد تركوا شريعة موسى عليه السلام في أكثر مما هم عليه وتمسكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلماؤهم»[2].

---

(١) السموأل بن يحيى المغربي (إفحام اليهود) (ص٩٣، ص٩٤) وقد نقل عنه هذا ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٦، ٢٩٧) علماً بأن ابن القيم رحمه الله لم يعز ما نقله للسموأل صراحة لأن طريقة القدامى في التأليف عدم الإشارة للمواضع التي ينقلوا منها.

(٢) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣٠٠) وهي كما نقلها عن السموأل في (إفحام اليهود (ص٩٦-٩٩)).

فمن ذلك: أنهم يقولون في صلاتهم ما ترجمته: «اللهم اضرب ببوق عظيم لفيفنا واقبضنا جميعاً من أقطار الأرض إلى قدسك، سبحانك يا جامع شتات قوم إسرائيل»[1].

ويقولون كل يوم ما ترجمته: «أردد حكامنا كالأولين، ومشيرينا كالابتداء وابن أورشليم قرية قدسك في أيامنا وأعزنا بابتنائها سبحانك يا باني أورشليم»[2]. فهذا قولهم في صلاتهم ومع علمهم بأن موسى وهارون عليهما السلام لم يقولا شيئاً من ذلك، ولكنها فصول لفقوها بعد زوال دولتهم[3].

وكذلك صيامهم، كصوم إحراق بيت المقدس وصوم حصاره وصوم صلب هامان التي جعلوها فرضاً لم يصمها موسى عليه السلام وليس شيء من ذلك في التوراة وإنما وضعوها لأسباب اقتضت وضعها عندهم، وهذا مع أن في التوراة: «لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به شيئاً ولا تنقصوا منه شيئاً»[4]. ويبطل ابن القيم شبهتهم في إنكار النسخ بقوله: «وقد تضمنت التوراة أوامر كثيرة جداً وهم مجمعون على تعطيلها وإلغائها فإما أن تكون منسوخة بنصوص أخرى من التوراة أو بنقل صحيح عن موسى عليه السلام أو باجتهاد علمائهم وهي على التقادير الثلاث قد بطل قولهم بإنكار النسخ». ويتابع ابن القيم «أنه من العجب أن أكبر تلك الأوامر التي هم مجمعون على عدم القول والعمل بها إنما يستندون فيها إلى أقوال علمائهم وأمرائهم، وقد اتفقوا على تعطيل الرجم للزاني وهو نص في التوراة وتعطيل أحكام كثيرة منصوصة في التوراة»[5].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣٠١)، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.

(٥) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣٠١)، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.

هذا وقد أورد ابن القيم كثيراً من الأدلة والبراهين التي تثبت بطلان قولهم في عدم جواز النسخ وقد ظهر منهجه رحمه الله واضحاً في ذلك، وما ذكرته من تلك الأدلة أرى أنه كاف لاستيفاء الغرض الذي من أجله بينت منهجه في بيان تلاعب اليهود في عقيدة النسخ والذي يجعلون فيه لأحبارهم ورهبانهم الحق في إحلال ما يرونه حلالاً وتحريم ما يرونه حراماً وإن كان نص التوراة بخلافه، في حين يحجرون على الله تعالى وتقدس أن ينسخ ما يريد من شريعته وهو تعالى القائل في محكم التنزيل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٦-١٠٧].

النتيجة:

إن موقف ابن القيم هو وقوع النسخ في الشرائع السابقة وفي شريعة يعقوب عليه السلام وعليه فلا مانع أن ينسخ الله شريعة موسى بشريعة محمد ﷺ.

المبحث الثاني

عقيدة اليهود في النبوة

المطلب الأول

بيان ابن القيم لموقف اليهود من أنبيائهم

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بأنه أرسل الرسل والأنبياء إلى مختلف الأمم الغابرة فقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

وكان كل واحد منهم صلوات الله عليهم يدعو قومه لعبادة الله الواحد الأحد،

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ الله وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

لذا كان من الفروض التي فرضها الله سبحانه على عباده واعتبرت ركناً من أركان الدين الإيمان بالرسل والأنبياء جميعهم، وتصديقهم في أخبارهم، وطاعتهم في أوامرهم ونواهيهم، قال تعالى: ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبراهيم وَإِسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦].

واليهود شأنهم شأن غيرهم من الأمم، أرسل الله إليهم الرسل والأنبياء لنفس الهدف وهو عبادة الله وحده، إلا أنهم ثاروا في وجه أنبيائهم ورفضوا طاعتهم، وانسلخوا من عقيدتهم وهاجموهم سواء بالألفاظ التي يتعفف اللسان عن ذكرها، أو بوصفهم بصفات لا تليق بمقامهم عليهم صلوات الله وسلامه بل إنهم هاجموا أنبياءهم بالقتل أحياناً أخرى، واستبد بهم الكفر فعبدوا غير الله سبحانه، حتى في ظل وجود الأنبياء بينهم، ويجدر بنا هنا أن نذكر بعض آيات الله تعالى التي تحدثت عن سلوكهم مع الله سبحانه ومع رسله وأنبيائه عليهم السلام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ الله وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١].

وقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ الله وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:١٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وقوله تعالى: ﴿لُعِنَ

الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسرائيل عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

وبالإضافة إلى هذه الآيات سنورد بعض ما اقتبسه ابن القيم رحمه الله من كتبهم حتى لا يكون البحث في هذه القضية مبتوراً وحتى نستطلع منهج ابن القيم من خلال بيانه لعقيدة اليهود في أنبيائهم. والحقيقة أنهم وصفوا الأنبياء في توراتهم بأقذع الأوصاف وأحط الأخلاق على الرغم من أن الأنبياء عليهم صلوات الله هم صفوة البشر وخيرة الله من عباده، لكن اليهود لعنهم الله أرادوا أن يبرروا لأنفسهم ارتكاب الجرائم فما كان منهم إلا أن قدحوا في الأنبياء وآذوهم. يقول ابن القيم رحمه الله «وفي التوراة التي بأيديهم من التحريف والتبديل، وما لا تجوز نسبته إلى الأنبياء ما لا يشك فيه ذو بصيرة. والتوراة التي أنزلها الله علىموسى بريئة من ذلك، ففيها عن لوط رسول الله أنه خرج من المدينة وسكن في كهف الجبل، ومعه ابنتاه فقالت الصغرى للكبرى: قد شاخ أبونا فارقدي بنا معه لنأخذ منه نسلاً، فرقدت معه الكبرى، ثم الصغرى، ثم فعلتا ذلك في الليلة الثانية، وحملتا منه بولدين موآب وعمون»[1].

وهنا يستنكر ابن القيم فحش اليهود هذا قائلاً: «هل يحسن أن يكون نبي رسول كريم على الله يوقعه سبحانه في مثل هذه الفاحشة العظيمة في آخر عمره ثم يذيعها عنه ويحكيها للأمم؟»[2]. ويذكر ابن القيم تبريرهم على إيرادهم هذه القصة في توراتهم قولهم أن نكاح الأقارب لم يكن حراماً..

وهنا تظهر قدرة ابن القيم العقلية في الرد عليهم من خلال توراتهم التي تكذبهم

---

(١) ابن القيم، (هداية الحيارى) (ص٤١٧)، تحقيق د.محمد الحاج، وقد وردت قصة لوط هذه في الأصحاح التاسع عشر من سفر التكوين ضمن الفقرات من ٣٠-٣٨.

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤١٧)، تحقيق د.محمد لحاج.

لما ثبت فيها من تحريم نكاح الأخت وذلك في النص التالي: «إن إبراهيم الخليل خاف في ذلك العصر أن يقتله المصريون، حسداً له على زوجته سارة فأخفى نكاحها، وقال: هي أختي، علماً منه بأنه إذا قال ذلك لم يبق للظنون إليها سبيل»[1] حيث يدلل ابن القيم رحمه الله من خلال هذا النص على تحريم نكاح البنت قائلاً: «وهذا أظهر دليل على أن تحريم نكاح الأخت كان ثابتاً في ذلك الزمان فما ظنك بنكاح البنت الذي لم يشرع ولا في زمن آدم عليه السلام؟»[2].

ومن الملاحظ أن ابن القيم قد أثبت فساد قولهم في لوط من نفس المصدر الذي استقى اليهود منه افتراءهم على لوط عليه السلام وهذا يوضح قدرة ابن القيم العقلية على إثبات تناقضهم في القول وبيان كذبهم ويدلل ابن القيم أيضاً على قدحهم في أنبيائهم وإيذائهم لهم، ما رموا به موسى عليه السلام فآذوه في حياته، ونسبوه إلى ما برأه الله تعالى منه، ونهى الله سبحانه هذه الأمة عن الإقتداء بهم في ذلك حيث يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب:٦٩]. ويورد ابن القيم في كتابه[3] ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: (كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ينظر بعضهم إلى سوأة بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر[4]، قال فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوب موسى، قال: فجمح موسى يأمره، يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى، وقالوا: والله ما بموسى من بأس، فقام

---

(١) التوراة، التكوين (٢٠ :١-٣).

(٢) ابن القيم: (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣١٤) تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.

(٣) ابن القيم، (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣١١) نفس المحقق.

(٤) آدر: أي منتفخ الخصية لتسرب سائل في غلافها، ابن القيم (إغاثة اللهفان (٢/ ٣١٢)) وجاء تعريفها كذلك في (لسان العرب)، لابن منظور (١/ ٩٤-٩٥) مادة (آدر).

الحجر بعد حتى نظر إليه، فأخذ ثوبه، وطفق بالحجر ضرباً»[1].

قال أبوهريرة: «والله إن بالحجر لندبا[2] ستة أو سبعة من أثر ضرب موسى الحجر» وأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَى فَبرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُواْ﴾ [الأحزاب:٦٩].

وذكر ابن القيم ما قاله سفيان بن حسين عن الحكم بن جبير عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَى﴾ قال: «صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلته، وكان أشد حباً لنا منك وألين لنا منك، وآذوه بذلك.. » وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ﴾ [الصف:٥]، ويعلق ابن القيم قائلاً: فإنها جملة في موضع الحال: أي أتؤذونني وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ﴾ وذلك أبلغ العناد[3].

ويذكر أيضاً قول المسيح في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يبَنِي إسرائيل

---

(١) هذا اللفظ الذي أورده ابن القيم مأخوذ من مسند الإمام أحمد بن حنبل(٢/ ٣١٥)، أما رواية البخاري فقد وقفت عليها باللفظ التالي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه فآذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ، أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ... ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً من أثر ضربة ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله: ﴿يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَى فَبرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب:٦٩] ورد هذا الحديث عند البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب ادخلوا سجداً وقولوا حطة حديث رقم (٣٤٠٤). العسقلاني، ابن حجر،(فتح الباري شرح صحيح البخاري) (٦/ ٤٣٦)

(٢) ندباً: أي أثر الجرح، الباقي على الجلد. الفيروزآبادي(القاموس المحيط) (١/ ١٣١) فصل النون. باب الباء، مادة(ندب).

(٣) ابن القيم(إغاثة اللهفان) (٢/ ٣١٣) تحقيق طه سعد، و(هداية الحيارى) (ص٥٨٩، ٥٩٠) تحقيق د.محمد الحاج.

إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦]. كما أن هذه الأمة الغضبية -كما يصفها ابن القيم- قد نسبوا إلى عيسى عليه السلام السحر، وقالوا أنه ولد بغية، ونسبت أمه إلى الفجور، كما نسبوا إلى يوسف عليه السلام أنه حلّ تكة سراويله تكة سراويل سيدته، وأنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته، وأن الحائط انشق له فرأى أباه يعقوب عليه السلام عاضاً على أنامله، فلم يقم حتى نزل جبريل عليه السلام، فقال: يا يوسف تكون من الزناة وأنت معدود عند الله تعالى من الأنبياء؟ فقال حينئذ وهنا يقول ابن القيم معلقاً: «ومعلوم أن ترك الفاحشة عن هذا لا مدح فيه، فإن أفسق الناس لو رأى هذا لولى هارباً وترك الفاحشة»(١).

وبعد أن ذكر لنا ابن القيم رحمه الله بعض النصوص الصريحة الواضحة التي تؤكد رمي اليهود للأنبياء بأقذع الأوصاف وأشنع الأخلاق، نجده مباشرة يعقب على قولهم ويفنده ويبطله بالطريقة المقنعة حيث يعتمد على نصوص أخرى من التوراة تثبت عكس ذلك -كما شاهدنا سابقاً- أو ربما يعتمد فيه على حجته العقلية في إثبات فساد قولهم وجهل عقولهم، واختيارهم الكفر على الإيمان.

وقد بين ابن القيم عدم اكتراثهم بما يرتكبونه من جرائم ومن ذلك أنهم قتلة الأنبياء فقتلوا زكريا، وابنه يحيى، وخلقاً كثيراً من الأنبياء حتى قتلوا في يوم سبعين نبياً وأقاموا السوق في آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئاً(٢)، كما أنهم اجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فصانه الله تعالى وأكرمه أن يهان على أيديهم وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه، وراموا قتل خاتم النبيين مراراً عديدة والله عصمه منهم(٣).

مما سبق يتضح لنا منهج ابن القيم في بيانه لموقف اليهود من أنبيائهم حيث اعتمد

---

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣١٥) تحقيق طه سعد.
(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٢٥١-٤٦٦).
(٣) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٢٥١)، تحقيق د.محمد الحاج.

في رده، على النقل تارة حيث ظهر هذا في إيراد الحجج من كتاب الله سبحانه مستدلاً ومسترشداً بالآيات الكريمة أو من تناوله لنصوص توراتهم المحرفة التي أثبت فيها التناقض مرات عديدة، وتارة أخرى على المنهج العقلي من خلال إجابته ورده على افتراءاتهم الكاذبة تجاه الرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه.

وقد اهتم ابن القيم بقضية النبوة بصفة عامة حيث ظهر ذلك جلياً في كتابه هداية الحيارى مؤكداً فيه حقيقة النبوة ومثبتاً لها وراداً على منكريها بالحجة القوية والبيان الساطع ثم موضحاً الحكمة من إرسال الرسل والذي به ختم كتابه هداية الحيارى حيث يقول في ذلك: «فأهل الأرض كلهم في ظلمات الجهل والبغي إلا من أشرق عليه نور النبوة كما في المسند وغيره من حديث عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل»[1]

ولذلك بعث الله رسله ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والنور، ومن لم يجبهم بقي في الضيق والظلمة التي خلق فيها، وهي ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الغفلة عن نفسه وكمالها وما تسعد به في معاشها ومعادها، فهذه كلها ظلمات خلق فيها العبد فبعث الله رسله لإخراجه منها إلى نور العلم والمعرفة الإيمان.

ويتابع ابن القيم مؤكداً أن من أخطأه هذا النور فإنه سيتقلب في ظلمات بعضها فوق بعض فيكون مدخله ومخرجه وقوله وعمله وقصده ظلمات، فلو أشرق له شيء من نور النبوة لكان بمنزلة إشراق الشمس على بصائر الخفاش[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٧٦). الحديث صحيح. [المجلة].

(٢) الخفاش: بضم الخاء وتشديد الفاء، طائر صغير لا يطير إلا ليلاً وفي ظلم الكهوف، (هداية الحيارى) (ص٥٩٢) تحقيق د.محمد الحاج ، ابن منظور (لسان العرب) (٤/ ١٥٣) باب الخاء، مادة (خفش).

بصائر غشـاها النهـار بضوئـه ولاءمها قطع من الليل مظلـم

يكاد نور النبوة يلمع تلك الأبصار ويخطفها لشدته وضعفها، فتهرب إلى الظلمات لموافقتها لها وملاءمتها إياها[1] قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَـهُ نُـوراً فَمَـا لَـهُ مِـن نُورٍ﴾ [النور:٤٠].

المطلب الثاني

دراسة ابن القيم لعقيدة اليهود في عيسى عليه السلام

قبل أن نتحدث عن دراسة ابن القيم لهذه العقيدة يجدر بنا أن نتعرف علـى رسـالة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل.

لم يكن عيسى عليه السلام -بدعاً من الرسل، بل وافق طريقه طريـق إخوانـه مـن الرسل الكرام، يدعو بني إسرائيل الىعبادة الله وحده، كما هي دعوة الرسل من قبلـه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِـن قَبْلِـكَ مِـن رَّسُـولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْـهِ أَنَّـهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَـاْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فكانت دعوة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل هي عبـادة الله وحـده، قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَـلاَّمُ الْغُيُـوبِ * مَـا قُلْـتُ لَهُـمْ إِلاَّ مَـا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِـي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

ثم إن دعوته عليه السلام كانت خاصة ببني إسرائيل، حيث حـدد القـرآن الكريـم

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٥٩١-٥٩٢) بتصرف، نفس المحقق.

هذه الخصوصية بقوله تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسرائيل﴾ [آل عمران:٤٩] ثم حدد القرآن الكريم مهمة رسالة عيسى عليه السلام بأنها مكملة لما جاء به موسى والأنبياء من قبله عليهم السلام قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦] فرسالة عيسى عليه السلام لم تكن ناسخة لشريعة موسى عليه السلام لذلك كانت شريعة التوراة هي الأصل وهي الإمام، قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف:١٢] أما الإنجيل فلم تكن فيه شريعة متكاملة حيث جاء ببعض التخفيفات والتعديلات وهنا يؤكد سيد قطب[١] رحمه الله في أن التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم هي كتاب عيسى عليه السلام بالإضافة إلى الإنجيل الذي يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير[٢].

ويبين سيد قطب أن أي دين لا بد أن يكون منهجاً كاملاً يربط حياة الناس بمنهج الله سبحانه، ويؤكد أنه لا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة عن الشعائر التعبدية وعن القيم الخلقية، وأن أي انفصال لهذه المقومات فإنه يبطل عمل الدين في النفوس والحياة، وهذا ما حدث للمسيحية والذي على أثره وقع العداء بينهم وبين اليهود، وهنا يقول سيد قطب: «فلما وقع ذلك الإنفصال في الدين المسيحي عجزت المسيحية عن أن تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم

---

(١) سيد قطب: هو سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي. ولد في قرية موشة إحدى قرى محافظة أسيوط، وكانت ولادته سنة (١٩٠٦م)، اشتغل مدرساً بمدارس الوزارة، وانتظم في شبابه مع حزب الوفد حتى عام (١٩٤٢)، ثم انتظم عملياً في جماعة الإخوان المسلمين سنة (١٩٥٣م). ولسيد قطب كثير من المقالات والكتب النقدية. وله ديوان شعري. وكان سيد -رحمه الله- من أوائل ضحايا البطش والتنكيل بالجماعة، فسجن أكثر من مرة في سجون عبدالناصر، وعذب عذاباً شديداً ثم حكم بالإعدام، وتم إعدامه سنة (١٩٦٦م)، ترك رحمه الله ٢٩ كتاباً على رأسها (الظلال) (الخالدي، صلاح عبدالفتاح. سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد) (ص١٩-ص٢٢)

(٢) سيد قطب (في ظلال القرآن) (١/ ٥٨٩)

وهذا يؤكد لنا أن دعوة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل كانت تركز على الناحية الروحية، والسبب في ذلك كما يعزوه بعض الكتّاب[2] إلى أن اليهود انحرفوا إلى المادة وأفرطوا في تهالكهم عليها تاركين تعاليم موسى عليه السلام، ومنكرين القيامة والحساب والعقاب مقبلين على الشهوات، مدعين أنهم شعب الله المختار وأنه لا صلة بين المخلوق والخالق إلا عن طريق الأحبار منحرفين بذلك عن الطريق الذي دعاهم إليه موسى عليه السلام فكان لا بد من مصلح يقوّم حياتهم ويردهم إلى الدين الصحيح وإلى الحياة الروحية التي تهذب نفوسهم فكانت رسالة المسيح عليه السلام التي جاءت بأسس أخلاقية روحية يقوم عليها بناء تلك الشريعة.

إلا أن اليهود عندما رأوا تلك التعاليم[3] تخالف طبائعهم الفاسدة بدأوا يكنون

---

(١) نفس المرجع السابق، (١/ ٥٩٠-٥٩١).

(٢) من هؤلاء الكتاب، د.محمد الحاج في كتابه (النصرانية من التوحيد إلى التثليث) (ص٨٣)، والنجار، عبدالوهاب، (قصص الأنبياء) (ص٤٦٧)، وشلبي، أحمد (مقارنة الأديان - المسيحية) (ص٤٦)

(٣) التعاليم التي تخالف طبائعهم -والتي بسببها كفروا به- ومنها:

أ) دعوة عيسى عليه السلام لهم بإفراد الله بالعبودية وعدم الشرك به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٢-٧٣]

ب) التبشير بنبوة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ هَـذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦]، ولقد كره اليهود أن يكون نبي من العرب فحاربوا عيسى عليه السلام لأنه بشر به ﷺ.

ج) ومن تعاليمه أن الله لا يخص جنساً برعاية دون جنس، فهو كالشمس ترسل أشعتها للناس جميعاً سواء بسواء، وهذا مخالف لطبيعتهم الفاسدة في أنهم شعب الله المختار.

د) ومن التعاليم التي من أجلها كره اليهود عيسى عليه السلام أن أحل لهم الحصاد يوم السبت، ومنع =

العداء لعيسى عليه السلام فتعرض عليه السلام لسخطهم ولم يؤمن به إلا القليل منهم.

ويبين الدكتور شلبي بأن عيسى عليه السلام ليس له أي ذكر في كتبهم أو حتى في تاريخهم الديني، وكذلك ليس لدعوته ولا لأحداث القبض عليه وصلبه أي ذكر فالذي يقرأ كتب اليهود لا يجد لعيسى بن مريم ذكراً، وهذا هو الذي حدا ببعض الغربيين إلى اعتبار عيسى شخصية خرافية فرضية ليست حقيقة واقعة أ.هـ.[1]

ولقد تعمد اليهود إغفال ذكر عيسى بن مريم عليه السلام صراحة بهذا اللفظ في كتبهم إلا أنهم لم يغفلوا كلمة (المسيح) فقد وردت في التوراة، ولا يزال اليهود ينتظرونه، ويعتبرونه ملكاً عظيماً سيأتي ليجعل لهم السلطان على الأرض ويجعل جنسهم هو الجنس الأعظم بين أجناس البشر، فاليهود مجمعون على أن في التوراة بشارة بمخلص يأتي من بعد موسى عليه السلام، وهم بأسرهم لا ينكرون ذلك.[2]

ولقد كانت دراسة ابن القيم رحمه الله لعقيدة اليهود في المسيح عليه السلام تقوم أولاً على تأكيده بأن اليهود لا ينكرون وجوده ويدلل ابن القيم على ذلك بقوله: «ويزعمون (أي اليهود) أن قائماً يقوم فيهم من ولد داود النبي، إذا حرك شفتيه

فكرة الذبائح من أجل المفاخرة والتباهي، وهدمه عليه السلام لتعاليم الأحبار المضللة والتي كانت تعمل على جمع المال من الشعب، وطرده للباعة من ساحة المعبد قائلاً: «إن المعبد ليس سوقاً» إلى غير ذلك من التعاليم التي خالفت هوى اليهود مما أوجب عداءهم له عليه السلام، الحاج، محمد أحمد (النصرانية من التوحيد إلى التثليث) (ص٨٠-ص٨٨)، بتصرف، وشلبي، أحمد (مقارنة الأديان- المسيحية) (ص٤٦)، وعاشور، سيد محمد (اليهود في عصر المسيح) (ص١٠١-١٠٤) بتصرف.

(١) شلبي، أحمد (مقارنة الأديان - المسيحية) (ص٧٦)، من الواضح أن د.شلبي قد جانب الصواب عندما اعتبر أن عيسى ليس له أي ذكر في كتبهم والصحيح أن عيسى جاء ذكره في التلمود المطبوع في نهاية القرن التاسع عشر باسم (Palam).

(٢) شلبي، د.أحمد (مقارنة الأديان - المسيحية) (ص٧٦-٧٧).

بالدعاء مات جميع الأمم ولا يبقى إلا اليهود وهذا المنتظر بزعمهم هو المسيح[1] الذي وعدوا به»[2].

ثم يذكر ابن القيم ما قاله اليهود في العلامات الدالة على مجيئه ثم يعقب على كلامهم وهذه هي طريقة ابن القيم ومنهجه الذي لمسناه، فهو يعرض أولاً أقوالهم ثم يفندها ويرد عليها، ومن العلامات التي قالوها وعقب عليها ابن القيم قولهم الذي أورده رحمه الله في كتابه هداية الحيارى[3] من أن الذئب والتيس يربضان معاً وأن

---

(١) المسيح: هو لغة مأخوذ من المسح (والمسح) هو امرارك يدك على الشيء السائل أو المتلطخ تريد إذهابه بذلك، كمسحك رأسك من الماء، مسحه يمسحه مسحاً، (والمسيح) يأتي بمعنى الصديق، وأصله بالعبرية مشيحاً، ومعناه المبارك، وبه لقب عيسى بن مريم عليه السلام لصدقه، وقيل لأنه كان سائحاً في الأرض لا يستقر، وقيل لأنه كان يمسح بيده على العليل والأكمه والأبرص فيبرئه بإذن الله، وقيل لأنه مسح بالبركة، أو لأنه كان أمسح الرجل ليس لرجله أخمص، أو لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وقضية المسح بالزيت كان تقليداً سائداً في بلاد الشرق القديم، وكان الناس يعتقدون في أن الزيت مقدس تكمن فيه قوة خارقة تنتقل إلى الشخص الممسوح به، وقد كان المسح في بادئ الأمر مقصوراً على الكهنة ليكون الكاهن مقدساً ثم انتقلت فكرة المسح للأنبياء ثم الملوك والأمراء ولذلك سموا هؤلاء بالمسحّاء وتعني المختارين والمباركين من قبل الله وكل من يمسح به يكون مخلصاً للشعب وأن هذا المخلص يعرف بالمسيح، وتطورت فكرة الخلاص عند اليهود وأصبح لفظ المسيح يطلق على المخلص حيث اختمرت هذه الفكرة في عصر ما قبل مجيء المسيح عيسى بن مريم، وعندما جاء عيسى عليه السلام رأى اليهود أن هذا المولود الجديد سيكون هو المخلص، ولكن خاب فألهم، لأن عيسى عليه السلام جاء ليخلصهم من نفوسهم المريضة ويعلمهم الأخلاق الكريمة التي نبذوها وراء ظهورهم، فاختلفت طريقهم مع طريقه فكفروا به وعادوه ولم يؤمن به إلا القليل الذين سموا (حواريين) حيث لم يكن الحواريون والمؤمنون بعيسى عليه السلام يدعون مسيحيين في زمانه، وقد أطلق عليهم هذا اللقب -(مسيحيون)- أول مرة بولس في أنطاكية ثم أقر مجمع نيقية المنعقد سنة (٣٢٥م) من أجل تمييزهم عن المؤمنين بوحدانية الله وبشرية المسيح فصاروا يعرفون بالمسيحيين، ابن منظور، (لسان العرب) (١٣/ ص٩٨-٩٩)، (قاموس الكتاب المقدس) (ص٨٥٩-٨٨٩) وغربال شفيق (الموسوعة العربية) (ص١٩٨١)، ورحمت الله الهندي (إظهار الحق) (٣/ ٧٣٠) من كلام المحقق د.ملكاوي في الهامش، والنجار، عبدالوهاب (قصص الأنبياء) (ص٤٤٩).

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤٢٣)، و(إغاثة اللهفان) (٢/ ٣٠٩).

(٣) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤٢٣).

البقرة والذئب يرعيان جميعاً، وأن الأسد يأكل التبن كالبقر. وهنا يعقب ابن القيم قائلاً: «فلما بعث المسيح كفروا به عند مبعثه وأقاموا ينتظرون متى يأكل الأسد التبن كالبقر، حتى تصح لهم علامات مبعث المسيح»[1]

ويسخر ابن القيم منهم مؤكداً أن الذي ينتظرونه هو المسيح الدجال[2] فهم يعتقدون -كما يذكر ابن القيم- أن هذا المنتظر متى جاءهم يجمعهم بأسرهم إلى القدس وتصير لهم الدولة، ويخلو العالم من غيرهم ويحجم الموت عن جنابهم المنيع مدة طويلة وقد عوضوا من الإيمان بالمسيح ابن مريم انتظار مسيح الضلالة الدجال فإنه هو الذي ينتظرونه حقاً، وهم عساكره، وأتبع الناس له، ويكون لهم في زمانه شوكة ودولة إلى أن ينزل مسيح الهدى ابن مريم فيقتل منتظرهم، ويضع هو وأصحابه فيهم السيوف حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقولان يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله[3]، فإذا نظّف الأرض منهم ومن عباد الصليب، فحينئذ

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤٢٣).

(٢) المسيح الدجال: وسمي بذلك لأن عينه ممسوحة عن أن يبصر بها، والدجال أي الكذاب، وروى بعض المحدثين: المسيح بكسر الميم والتشديد في السين، وقيل المسيح لأنه مسح خلقه أي شوه، وقد روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده المتصل عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ، ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال: (إن الله تعالى ليس بأعور ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافئة) وذكر أن اليهود إنما ينتظرون المسيح الدجال مسيح الضلالة. ابن منظور (لسان العرب) (١٣/ ٩٩)، وابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤٢٤)، ومسلم بن الحجاج، (صحيح مسلم بشرح النووي) (١٨/ ٥٨) كتاب (٥٢) (الفتن) باب (٢٠) وهو باب ذكر الدجال وصفته، والحديث رقم (١٠٠)

(٣) ورد في هذا المعنى أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ، وابن القيم هنا يؤكد أن قتل اليهود واختباءهم هرباً من المسلمين خلف الشجر والحجر سيكون في عهد عيسى عليه السلام بعد نزوله آخر الزمان، علماً أن الأحاديث الصحيحة الواردة لا تفيد ذلك بزمن معين سوى أن ذلك سيحصل قبل قيام الساعة، راجع الأحاديث في هذا المعنى عند البخاري في كتاب الجهاد والسير باب قتل اليهود، حديث رقم (٢٩٢٥. ٢٩٢٦) وعند الإمام مسلم كتاب الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ../ وأرقام الأحاديث من (٨٠-٨٢) كما هي عند الإمام مسلم).

يرعى الذئب والكبش معاً ويربضان معاً، وترعى البقرة والذئب معاً، ويأكل الأسد التبن، ويلقى الأمن في الأرض[1].

وجاء المسيح عيسى بن مريم -عليه السلام- يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وينادي بتطهير النفوس والتمسك بالقيم الروحية ونحو ذلك فكذبوه وهموا بقتله فحفظه الله منهم.

وهنا يؤكد ابن القيم أنه مع علمهم أنه رسول الله تعالى إليهم إلا أنهم كفروا به بغياً وعناداً وراموا قتله وصلبه فصانه الله تعالى من ذلك ورفعه إليه وطهره منهم، فأوقعوا القتل والصلب على شبهه، وهم يظنون أنه رسول الله عيسى عليه السلام، فانتقم الله تعالى منهم، ودمر عليهم أعظم تدمير[2].

ويعزو ابن القيم سبب تشتيت اليهود وإتمام غضب الله عليهم هو تكذيبهم وكفرهم بالمسيح عليه السلام وفي هذا يقول: «ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سفال ونقص إلى أن قطعهم الله تعالى في الأرض أمماً، ومزقهم كل ممزق، وسلبهم عزهم وملكهم، فلم يقم لهم بعد ذلك ملك إلى أن بعث الله تعالى محمداً ﷺ فكفروا به وكذبوه، فأتم عليهم غضبه، ودمرهم غاية التدمير، وألزمهم ذلاً وصغاراً لا يرفع عنهم إلى أن ينزل أخوه المسيح من السماء، فيستأصل شأفتهم، ويطهر الأرض منهم ومن عباد الصليب، قال الله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ الله بَغْياً أَن يُنَزِّلُ الله مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة:٩٠]، فالغضب الأول بسبب كفرهم بالمسيح، والغضب الثاني بسبب كفرهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما»[3].

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤٢٣-٤٢٤).

(٢) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٤).

(٣) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٤).

اليهود ينكرون معجزات عيسى عليه السلام وينسبون الألوهية إليه :

يبين ذلك ابن القيم قائلاً: «واليهود مجمعة أنه لم تظهر له معجزة، ولا بدت منه لهم آية، غير أنه طار يوماً، وقد هموا بأخذه، وطار على أثره آخر منهم، فعلاه في طيرانه، فسقط إلى الأرض بزعمهم»[1]، ومن أقوال اليهود في ذلك ما ورد في الإنجيل أنهم كانوا يقولون له وهو على الخشبة -بظنهم- «إن كنت المسيح فأنزل نفسك نؤمن بك»[2]. يطلبون بذلك آية، فلم يفعل[3].

ثم إنهم -قاتلهم الله- قد نسبوا الألوهية إليه استهزاء به ليكون ذلك أبلغ في تسلطهم عليه، حيث يذكر ابن القيم السبب الذي حملهم على ذلك وهو أن أحبارهم وعلماءهم لما مضى وبقي ذكره، خافوا أن يصير عامتهم إليه، إذ كان على سنن تقبله قلوب الذين لا غرض لهم، فشنعوا عليه أموراً كثيرة ونسبوا إليه دعوى الإلهية تزهيداً للناس في أمره[4].

طعن اليهود في نسب عيسى عليه السلام واختلافهم في ذلك :

وتظهر براعة ابن القيم رحمة الله حين يدلل من مصادرهم على التناقض والاختلاف الواضح بين طوائفهم في قضية مشهورة وهي نسبه عليه السلام مما يدلل على عدم يقينهم بشيء من أخباره.

ويورد ابن القيم: «أن منهم من يقول إنه كان رجلاً منهم ويعرفون أباه وأمه

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٥٢٩).

(٢) مرقس (١٥/ ٣٠-٣٢)

(٣) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٥٣٠)

(٤) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٥٣١).

وينسبونه لزنية[1] وحاشاه وحاشا أمه الصديقة الطاهرة البتول، ويزعمون أن زوجها يوسف بن يهودا[2] وجد البنديرا[3] عندها على فراشها أو شعر بذلك فهجرها وأنكر ابنها»[4].

ومن اختلاف اليهود -قاتلهم الله- في أمره ما ذكره لنا ابن القيم من أنهم يسمون أباه -بزعمهم- الذي هو خطيب مريم يوسف بن يهودا النجار، وبعضهم يقول إنما هو يوسف الحداد (وهذا من باب الاستهزاء) والنصارى تزعم أنها ذات بعل، وأن زوجها يوسف بن يعقوب ..

وينقل ابن القيم أنهم يختلفون في آبائه وعددهم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فمن مقل ومن مكثر[5] فهذا ما عند اليهود قاتلهم الله[6].

هكذا زعم اليهود وهكذا كفروا به وطعنوا في شرف والدته سيدة نساء العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾ [النساء:١٥٦]، ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم:١٢].

---

(١) إنجيل يوحنا (٨/ ٤٠-٤١)

(٢) يوسف بن يهودا: ذكر في إنجيل متى بأن يوسف بن يهودا هو زوج مريم العذراء وهو من بيت داود من بيت لحم. (متى: ١/ ١٦، ١/ ٢٠) وأنه مارس مهنة النجارة: (متى (١٣/ ٥٥).

(٣) البنديرا: قيل أنه اسم زوج مريم -على حد زعمهم- وذلك بقصد إخفاء اسمه الحقيقي، الطهطاوي، محمد عزت. (الميزان في مقارنة الأديان) (ص٦٧).

(٤) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٥٣١)

(٥) المقل: هو (متى) بلغ عدد سلسلة الآباء عنده من يوسف أبي المسيح (كما يدعي) إلى إبراهيم عليه السلام أربعين رجلاً، والمكثر: هو (لوقا) حيث بلغ عددهم عنده خمسة وخمسين رجلاً وقد أكمل السلسلة إلى آدم عليه السلام: ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٥٣٢) من كلام المحقق د.محمد الحاج في هامش الصفحة.

(٦) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٥٣٢).

المطلب الثالث

رد ابن القيم على إنكار اليهود لنبوة محمد ﷺ

لقد كان ابن القيم أحد العلماء الذين اهتموا بقضية النبوة وما يتعلق بها، بل لقد كان له دور بارز في إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وكانت لـه أيضاً حجة قوية في الرد على من أنكر نبوته ﷺ مثبتاً رحمه الله أن من أنكر نبوة محمد ﷺ وغيره من الأنبياء فقد أنكر نبوة من سبقه من الأنبياء والمرسلين، ثم إنه رحمه الله، قد سلك طريقين أساسيين في إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وغيره من الأنبياء السابقين وهما العقل والنقل ومن خلالهما استطاع أيضاً أن يرد على منكري نبوة محمد ﷺ من اليهود والنصارى.

ومن خلال منهج النقل استطاع ابن القيم أن يجمع النصوص الدالة على البشارة بنبينا محمد ﷺ ، محللاً تلك النصوص ناقداً لتأويلاتهم فيها ومثبتاً أنها دالة على نبوته ﷺ وهنا أستطيع أن أقول أن ابن القيم رحمه الله قد استطاع بعقليته الفذة أن يثبت أن كتب العهدين تتضمن نصوصاً تدل في مضمونها على البشارة بمحمد ﷺ على الرغم من جحود أهل الكتاب لها وعلى الرغم أيضاً من التحريف والتأويل الباطل لتلك البشارات.

ومن هذه البشارات التي استطاع ابن القيم أن يردّ بها على منكري نبوة محمد ﷺ من اليهود والنصارى وأن يثبت بها نبوته ﷺ عن طريق منهجه التحليلي ما يلي:

البشارة الأولى: نبياً من بين إخوتهم مثلك

ما ورد في سفر التثنية(١٨ / ١٨-٢٠) «سأقيم لهم نبياً من بين اخوتهم مثلك وألقي كلامي في فمه، فينقل إليهم جميع ما أكلمه به، وكل من لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أحاسبه عليه»[١].

[١] ذكره ابن القيم في(هداية الحيارى) (ص٣١٦) تحقيق د.محمد الحاج.

قال ابن القيم «فهذا النص مما لا يمكن لأحد منهم جحده وإنكاره ولكن لأهل الكتاب فيه أربع طرق: أحدها حمله على المسيح، أما اليهود فلهم فيه ثلاث طرق أحدها: على حذف أداة الاستفهام والتقدير: أأقيم لبني إسرائيل نبياً.. إلخ. فهو استفهام إنكاري حذفت منه أداة الاستفهام. الثاني أنه خبر ووعيد ولكن المراد به شموئيل النبي فإنه من بني إسرائيل، والبشارة إنما وقعت بنبي من إخوتهم وإخوة القوم هم بنو أبيهم وهم بنو إسرائيل. الثالث: أنه نبي يبعثه الله في آخر الزمان يقيم به ملك اليهود ويعلو به شأنهم وهم ينتظرونه إلى الآن»[1] . وهو المسيح المنتظر والمسمى عندهم ابن داود أي أنه سيأتي من نسل داود عليه السلام[2] .

وقد رد المسلمون تأويلهم الفاسد فقالوا البشارة صريحة في النبي محمّد ﷺ ولا تحتمل على غيره لأنها إنما وقعت بنبي من إخوة بني إسرائيل لا من بني إسرائيل أنفسهم والمسيح من بني إسرائيل فلو كان المسيح هو المراد لقال أقيم لهم نبياً من أنفسهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤] . وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل ولا يقال في لغة أمة من الأمم أن بني إسرائيل هم إخوة بني إسرائيل كما أن إخوة زيد لا يدخل فيه زيد نفسه.

وإذا تتبعنا منهج ابن القيم بعد أن جمع النصوص ثم حللها فإنه يقوم بمناقشتها ومقارنتها وتفنيدها حيث يذكر أن النص يبطل حمله على شموئيل لأن قوله في النص «نبينا مثلك» يدل على أنه صاحب شريعة عامة مثل موسى عليه السلام، كما أن النص يبطل حمله على يوشع مع ثلاثة أوجه، الوجه الأول كون يوشع من بني إسرائيل لا من إخوتهم، والثاني أنه لم يكن مثل موسى في التوراة بدليل «لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسى»، والثالث أن يوشع نبي في زمن موسى وهذا الوعد إنما هو

(١) ابن القيم(هداية الحيارى) (ص٣١٦، ص٣١٧) . تحقيق د. محمّد الحاج.

(٢) السقا. أحمد حجازي(المسيا المنتظر) (ص١٠٩) .

بني يقيمه الله تعالى بعد موسى، وبهذه الوجوه الثلاثة يبطل حمله على هارون مع أن هارون توفي قبل موسى ونبأه الله مع موسى في حياته، ويبطل ذلك من وجه رابع وهو أن في هذه البشارة أنه ينزل عليه كتاباً يتكلم به للناس من فمه وهذا لم يكن لأحد بعد موسى غيرالنبي ﷺ[1] وهذا الاستنتاج الذي توصل إليه ابن القيم يعتبر بمثابة الرد على خصومه مستدلاً على استنتاجه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ * أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٧] فالقرآن نزل على قلب رسول الله ﷺ وظهر للأمة من فمه. ولا تصح هذه البشارة على المسيح باتفاق النصارى لأنها إنما جاءت بواحد من إخوة بني إسرائيل وإخوتهم كلهم عبيد الله ليس فيهم إله والمسيح عندهم إله معبود وهو أجل عندهم من أن يكون نبياً لا غاية له فوقها وهذا ليس هو المسيح عند النصارى، وأما مقالتهم أنه على حذف الألف بأنه استفهام إنكاري والمعنى: «أأقيم لبني إسرائيل نبياً مثلك» فهي عادة لهم معروفة في تحريف كلام الله عن مواضعه والكذب على الله وقولهم لما يبدلونه ويحرفونه: هذا من عند الله فحمل الكلام على الاستفهام غاية ما يكون من التحريف والتبديل. وهذا التحريف والتبديل من معجزات رسول الله ﷺ التي أخبر بها عن الله فأظهر الله صدقه في ذلك كله إلى كل ذي لب وعقل فازداد إيماناً وازداد الكافرون رجساً إلى رجسهم[2].

وهكذا يستخدم ابن القيم منهجه في بقية النصوص التي جمعها محللاً ومفنداً ومبطلاً وراداً ومصححاً.

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣١٨)، تحقيق د. محمّد الحاج.

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣١٨- ص٣١٩). تحقيق د. محمّد الحاج بتصرف.

البشارة الثانية : الاستعلان من جبال فاران

ما نقله ابن القيم من سفر التثنية (٣٣/ ٢-٣) «أقبل الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل سعير، وتجلى من جبل فاران، وأتى من ربى القدس وعن يمنيه نار مشتعلة»[١].

ويفسر ابن القيم هذا النص مبيناً أن مجيئه من سيناء وهو الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام ونبأه عليه إخبار عن نبوة موسى عليه السلام[٢] وتجليه من سعير[٣] هو مظهر عيسى المسيح من بيت المقدس وهذه بشارة بنبوة المسيح عليه السلام[٤]. وفاران -كما يقول ابن القيم- هي مكة حيث يبين أن استعلانه -أي ظهوره ومجيئه- من جبال فاران يعني إنزاله القرآن على محمد ﷺ[٥].

ويوضح ابن القيم أن الله سبحانه وتعالى قد شبه نبوة موسى عليه السلام بمجيء الصبح وفلقه، ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه، ونبوة خاتم النبيين بعدهما ﷺ باستعلان الشمس وظهور ضوئها في الآفاق فبنبوته ﷺ قد كمل الضياء واستعلن وطبق الأرض[٦].

وينقل ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله ما ذكره ابن تيمية في

---

(١) ذكره ابن القيم في (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣٢٨) تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، و(هداية الحيارى) (ص٣١٩)، تحقيق د.محمد الحاج، إلا أن النص الذي نقله ابن القيم في هذين الكتابين وكذلك كثيراً من النصوص التي ينقلها، اعتمد في ذلك على ترجمة أخرى.

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣١٩).

(٣) سعير: وهي قرية تقع شمال مدينة الخليل بالقرب من بلدة حلحول، هكذا قال د.محمد الحاج في تحقيقه على (هداية الحيارى) (ص٣١٩)، وهي منطقة تقع جنوب البحر الميت كما ذكر في قاموس الكتاب المقدس (ص٤٦٦-٤٦٧).

(٤) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣١٩)

(٥) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣١٩+٣٤٥).

(٦) نفس الكتاب، (ص٣١٩-٣٢٠).

الجواب الصحيح[1] من أن الله سبحانه قد ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن فكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ونزول القرآن بمنزلة ظهور الشمس في كبد السماء.

ومن الملاحظ أن ترتيب التوراة كان حسب زمان بعثة الأنبياء الثلاثة كما بيّن ذلك ابن تيمية رحمه الله، أما ترتيب القرآن الكريم لزمان بعثة هؤلاء الأنبياء الثلاثة فكان مختلفاً عن ترتيب التوراة حيث تدرج من العالي إلى الأعلى، فهو ترتيب أفضلية.

يقول ابن القيم نقلاً عن شيخه ابن تيمية: «وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأماكن الثلاثة في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين:١] وهو في الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح وأنزل فيها الإنجيل ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:٢]، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه الصلاة والسلام تكليماً، وأقسم بالبلد الأمين[2] وهو مكة التي أسكن إبراهيم ولده إسماعيل وأمه فيه وهو فاران، ولما كان ما في التوراة خبراً عن ذلك، أخبر به على الترتيب الزماني فقدم الأسبق ثم الذي يليه، وأما القرآن فإنه أقسم به تعظيماً لشأنها، وإظهاراً لقدرته وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة، فبدا بالعالي، ثم انتقل إلى أعلى منه، ثم إلى أعلى منه، فإن أشرف الكتب المنزلة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل وكذلك الأنبياء الثلاثة»[3].

ويذكر ابن القيم[4] أن اليهود لا يعترفون بفاران على أنها مكة أرض الحجاز

(١) ابن تيميه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) (٣/ ص٣٠٢-٣٠٤) ونقله ابن القيم في (هداية الحيارى) (ص٣٤٦) تحقيق د.محمد الحاج.

(٢) كما هو في قوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين:٣]

(٣) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣٤٧) بتصرف، تحقيق د.محمد الحاج وقد نقله ابن القيم بتصرف عن ابن تيمية في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) (٣/ ص٣٠١-٣٠٤)، علماً بأنه لم يشر إلى الكتاب وإنما اكتفى بذكر صاحبه بقوله قال شيخ الإسلام، وهكذا كلما نقل عن ابن تيمية.

(٤) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ص٣٢٨-٣٢٩) تحقيق طه سعد، و(هداية الحيارى) ص٣٢٠.

ويقولون إنها أرض الشام، وهذا من بهتهم وتحريفهم ففي التوراة أن إسماعيل[1] لما فارق أباه سكن في برية فاران -وهي جبال مكة- ولفظ التوراة كمايلي:

«وأقام إسماعيل في برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر»[2] فثبت لهم بنص التوراة أن جبال فاران مسكن لولد إسماعيل وإذا كانت التوراة قد أشارت إلى نبوة تنزل على جبال فاران لزم أنها تنزل على ولد إسماعيل لأنهم سكانها، ويتابع ابن القيم ويؤكد قائلاً: «ومعلوم بالضرورة أنها لم تنزل على غير محمد ﷺ من ولد

---

(١) إسماعيل: وهو النبي إسماعيل عليه السلام، ابن النبي إبراهيم عليه السلام، ابن تارح (آزر) من نسل سام بن نوح وهو الابن الأكبر لأبيه، وأمه هاجر المصرية حيث أخذه هو وامه أبوه إبراهيم عليه السلام وأسكنهما في فاران (مكة) وقد امتحنه الله بذبح إسماعيل، فاستجابا دون تردد ولكن الله فداه بكبش عظيم، وقد أمرهما الله ببناء الكعبة فقاما يرفعان قواعدها حتى أتما بناءها، وقد تزوج إسماعيل امراة من جرهم وهي بنت مضاض بن عمر الجرهمي، وجرهم هو ابن قحطان، وقحطان أبو اليمن كلها وإليه يجتمع نسبها وينتهي نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام، وقد ولدت مضاض هذه -زوجة إسماعيل عليه السلام- اثني عشر ذكراً وهم أبناء إسماعيل عليه السلام وهم أيضاً آباء القبائل العربية كلها ويعتبر قيدر -وهو أكبر أبناء إسماعيل- جد عدنان ولذلك يعتبر إسماعيل عليه السلام رأس السلالة العربية المعروفة بالمستعربة.

فقط اصطلح النسابون على جعل العرب ثلاثة أقسام:

القسم الأول: العرب البائدة: كعاد وثمود وجرهم الأولى

القسم الثاني: العرب العاربة: وهم عرب اليمن من ولد قحطان فهم القحطانيون

القسم الثالث: العرب المستعربة: وهم نسل إسماعيل بن إبراهيم وسكنوا في شمال الجزيرة.

فالعرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان، وبعضهم يقول بأن قحطان من ولد إسماعيل فيكون إسماعيل جد العرب كلها، وقد توفي إسماعيل عليه السلام بمكة وعمره ١٣٠ سنة ودفن في الحجر مع أمه هاجر رحمهم الله تعالى، والحجر: هو حجر الكعبة الذي تركته قريش في بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام حينما ضاقت بهم النفقة فحجرت على الموضع ليعرف أنه من الكعبة، وقد ورد اسم إسماعيل في القرآن الكريم ١٢ مرة، (ابن هشام. عبدالملك بن هشام) (السيرة النبوية) (١/ ٧-٩) تعليق طه سعد، والزركلي، خير الدين (الاعلام) (١/ ٣٠٦) و(قاموس الكتاب المقدس) (ص٧٣)، والهندي، رحمه الله (إظهار الحق) (٤/ هامش (ص١١١٨) من كلام المحقق د.محمد ملكاوي.

(٢) التوراة: التكوين (٢١/ ٢٠-٢١).

إسماعيل عليهما السلام»[1]، ونراه في موضع آخر من هداية الحيارى يقول نقلاً عن علماء الإسلام[2]: «وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة فإن ادعوا أنها غير مكة قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران وقلنا لهم: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح».

البشارة الثالثة: بشارة الفارقليط

وهي بشارة تدل دلالة صريحة على محمد ﷺ وقد استطاع ابن القيم -رحمه الله- بمنهجه التحليلي أن يكشف اللثام عن دلالة تلك النصوص التي تبشر به ﷺ، كما أنه استطاع بمنهجه العقلي أن يفحم الخصم ويلزمه الحجة، ولقد تناول ابن القيم هذه البشارة بذكر نصوصها الدالة عليها أولاً ثم عاد إليها محللاً ومفنداً وناقداً ومسترشداً بما في كتاب الله تعالى.

وفيما يلي نصوص هذه البشارة كما اختارها ابن القيم رحمه الله:[3]

- ما جاء في الإنجيل أن المسيح قال للحواريين: «انا ذاهب وسيأتيكم البارقليط روح

---

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ص٣٢٨-٣٢٩) تحقيق طه سعد و(هداية الحيارى) (ص٣٢٠) تحقيق د.محمد الحاج.

(٢) من الملاحظ هنا أن ابن القيم رحمه الله كان ينقل عن (الجواب الصحيح) (٣/ ص٣٠٠) بدون الإشارة إلى اسم الكتاب وإنما كان يكتفي بالقول: قال شيخ الإسلام -يعني (ابن تيمية) مع العلم أن ابن تيمية رحمه الله كان قد نقل ما أشرنا إليه عن كتاب (دلائل النبوة) لأبي محمد بن قتيبة، وابن القيم هنا قد اكتفى بما نقله شيخه ابن تيمية.

(٣) أورد ابن القيم هذه النصوص في كتابه (هداية الحيارى) (ص٣٢٣-٣٢٥) تحقيق د.محمد الحاج، وقد قمت بالتأكد من هذه النصوص حسب الترجمة الحالية للكتاب المقدس فوجدت بعض الإختلاف في الألفاظ، وقد وجدت أنهم لا يذكرون كلمة (فارقليط) وقد عمدوا إلى حذفها واستبدالها (بالمعزي) وفي ترجمات أخرى (بالمخلص) وذلك لوضوح معنى الحمد في الفارقليط.

الحق لا يتكلم من قبل نفسه، إنما هو كما يقال له، وهو يشهد لي وأنتم تشـهدون، لأنكم معي قبل الناس وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به»(١)

- وفي إنجيل يوحنا: «البارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع به يكلمكم ويسوسكم بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب»(٢).
- وفي موضع آخر: «إن البارقليط روح الحق الذي يرسله أبي باسمي هو يعلمكم كل شيء»(٣)
- ونص آخر: «إني سائل أبي أن يبعث إليكم بارقليطاً آخر يكون معكم إلى الأبد، وهو يعلمكم كل شيء»(٤).
- وبشارة أخرى: «ابن البشر ذاهب والبارقليط من بعده يجيء لكم بالأسرار، ويفسر لكم كل شيء وهو يشهد لي كما شهدت له، فإني أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل»(٥).
- وفي موضع آخر: «إن أركون العالم سيأتي وليس لي شيء»(٦).

ومن الملاحظ أن هذه النصوص متقاربة، وابن القيم يعلل هذا بما نقله عن (دلائل النبوة) حين قال: قال أبو محمد بن قتيبة(٧): «وهذه الأشياء على اختلافها متقاربة

---

(١) إنجيل يوحنا (١٥/ ٢٦-٢٧).

(٢) إنجيل يوحنا (١٦/ ٧-١٣).

(٣) إنجيل يوحنا (١٤/ ٢٦).

(٤) إنجيل يوحنا (١٤/ ١٥-١٧).

(٥) إنجيل يوحنا (١٥/ ٢٦).

(٦) إنجيل يوحنا (١٤/ ٣٠) وقد استبدلت كلمة أركون في الترجمة التي بين يدي بكلمة سيد.

(٧) أبو محمد بن قتيبه: هو أبومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة المتوفي سنة (٢٧٦هـ) وله كتاب (دلائل النبوة) وذكره ابن النديم في الفهرست (ص٨٦) وهو مخطوط في مكتبة الظاهرية بدمشق بعنوان: أعلام رسول =

وإنما اختلفت لأن من نقلها عن المسيح ﷺ في الإنجيل من الحواريين بعده»[1].

- وفي موضع آخر: «..ولست أدعكم أيتاماً لأني سآتيكم عن قريب»[2]

- ومن النصوص أيضاً: «إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق، ذاك يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ما للأب»[3].

- وفي موضع آخر قوله في الإنجيل الذي بأيدي النصارى عن يوحنا أن المسيح قال للحواريين: «من أبغضني فقد أبغض الرب ولولا أني صنعت لهم صنائع لم يصنعها أحد لم يكن لهم ذنب لكنهم الآن رأوا فلا بد أن تتم الكلمة التي في الناموس لأنهم أبغضوني مجاناً ولو قد جاء المنحمنا[4] هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس فهو شهيد عليّ وأنتم أيضاً لأنكم قديماً كنتم معي، هذا قولي لكم لكي لا تشكوا إذا جاء»[5].

تعريف لفظ الفارقليط:

يتضمن لفظ الفارقليط معنى الحمد والحامد والحماد وأحمد ونحوها وهو يشبه لفظ

الله المنزلة على رسله في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وغير ذلك ودلائل نبوته من البراهين النيرة والدلائل الواضحة (د.محمد لحاج، في تحقيقه على كتاب ابن القيم (هداية الحيارى) هامش (ص٣٢٤).

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣٢٤) تحقيق د.محمد الحاج.

(٢) إنجيل يوحنا (١٤/ ١٨)

(٣) إنجيل يوحنا (١٦/ ١٢-١٥).

(٤) المنحمنا: كلمة سريانية وتعني بالعربية الحامد والمحمود والحمد، والترجمات الحالية لا تذكر لفظ المنحمنا فبعضها يذكر الفارقليط وبعضها يذكر المعزي، ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣٧٩).

(٥) إنجيل يوحنا (١٥/ ٢٣-٢٧) وقد أورده ابن القيم في (هداية الحيارى) (ص٣٧٩) تحقيق د.محمد الحاج.

(المنحمنا) بالسريانية، قال ابن القيم: «وتفسيره بالرومية: الفارقليط وهو بالعربية الحامد والمحمود والحمد»[1]

وقال أيضاً: «والفارقليط بلغتهم لفظ من ألفاظ الحمد، إما أحمد أو محمد أو محمود أو حامد .. ونحو ذلك»[2].

ثم بيّن ابن القيم معنى الفارقليط في لغتهم وذكر أقوالهم التي أرجعها إلى ثلاثة أوجه: أحدها: أنه الحامد والحمد ورجحت طائفة هذا القول وقالوا: الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم الحمد والدليل عليه في قول يوشع: «من عمل حسنة يكون له فارقليط جيد» قال ابن القيم: «أي حمد جيد»[3].

والقول الثاني: وعليه أكثر النصارى -أنه المخلص.

والقول الثالث: أنه بمعنى المعزي.

وعلى المعنى الأول فإن وصف الحمد ظاهر في محمد ﷺ ، وأمته هم الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته، ولما كان حماداً سمي بمثل وصفه محمداً على وزن مكرم ومقدس ومعظم وهو الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره، ويستحق ذلك فلما كان حماداً لله كان محمداً، وأما أحمد فهو أفعل التفضيل إذ هو أحمد من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا، أي أحق بأن يحمد من هذا فيكون فيه تفضيل على غيره في كونه محموداً، فلفظ محمد يقتضي زيادة في الكمية ولفظ أحمد يقتضي زيادة في الكيفية[4].

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣٧٩) تحقيق د.محمد الحاج.

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣٢٤) تحقيق د.محمد الحاج.

(٣) نفس المرجع (ص٣٢٥).

(٤) نفس المرجع (ص٣٣٤-٣٣٥) وهو من منقولات ابن القيم عن (الجواب الصحيح) (٤/ ١٦) لابن تيمية.

ويبين ابن القيم أن هناك من الناس من يقول معناه أنه أكثر حمداً لله من غيره وعلى هذا فيكون بمعنى الحامد والحماد وعلى الأول بمعنى المحمود.

والمصدر (الحمد) فإذا كان الفارقليط بمعنى الحمد فهو تسمية بالمصدر ويفيد المبالغة في كثرة الحمد، وهنا ينقل ابن القيم سر ما أخبر به القرآن عن المسيح من قوله: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، فإن هذا هو معنى الفارقليط[1].

ذكر الأستاذ عبدالوهاب النجار في كتابه[2] أنه كان في سنة (١٨٩٤م) طالباً في دار العلوم وكان يجلس بجانبه في درس اللغة العربية الدكتور كارلونلينو الإيطالي المتخصص في آداب اللغة اليونانية، فسأله النجار عن معنى كلمة (باراكليتوس Parakletos) فأجاب بأنها المعزي.

فقال له النجار: أنا أسأل الدكتور كارلونيلينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً.

فقال له كارلونيلينو: معناه الذي له حمد كثير.

فقال له النجار: هل يوافق ذلك أفعل التفضيل من فعل حمد.

فقال كارلو: نعم.

فقال له النجار: إن رسول الله ﷺ من أسمائه أحمد.

فقال له كارلونيلينو: يا أخي أنت تحفظ كثيراً.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله سر ما أخبر به القرآن الكريم عن المسيح في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦] وقد أشار رحمه الله

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣٣٥) تحقيق د.محمد الحاج

(٢) النجار، عبدالوهاب، (قصص الأنبياء) (ص٤٧٣).

إلى ما في سفر التكوين (١٧/ ٢٠): «وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاءك قد باركت فيه وأثمرت وأكثره بـ مؤد مؤد».

ثم ذكر أن أهل الكتاب قد اختلفوا في تفسير لفظه (مؤد مؤد) على قولين:

الأول: تأتي بمعنى جداً جداً أي كثيراً كثيراً.

الثاني: أنها صريحة في اسم محمد ﷺ.

فعلى القول الأول تكون بشارة بمن يعظم من بني إسماعيل عليه السلام وهنا يؤكد ابن القيم بأنه لم يعظم منهم أحد كما عظم محمد ﷺ.

أما على القول الثاني فإن الذي يؤيده قرب ألفاظ اللغة العربية من العبرانية وذلك كما في إسماعيل: شماعيل، وسمعتك: شمعتخا، وقدسك: قدشتخا، وأنت: أتا، وإسرائيل: يسرائيل، وهكذا فتكون الكلمة العبرانية (مؤد مؤد) أقرب شيء إلى لفظة محمد، ولا يقال (بجداً جداً) بخلاف أعظمه بمحمد ﷺ أو أعظمه جداً جداً فالله سبحانه قد كثره بمحمد ﷺ.

وعلى هذين التقديرين يؤكد ابن القيم أن النص من أظهر البشارات به ﷺ، فإنه بالمطابقة بين معنى الفارقليط ومعنى مؤد مؤد ومعنى محمد وأحمد وبالنظر إلى خصال الحمد التي فيه وفي أمته ودينه وكتابه ويعرف ما خلص به العالم من أنواع الشرك والكفر، والقول على الله بغير علم وما أعز الله به الحق وأهله وقمع به الباطل وحزبه يتيقن أنه الفارقليط الموعود به في هذه البشارة[1]

وقد حرّف النصارى نصوص هذه البشارة عندما عجزوا فمنهم من قال هو روح نزلت على الحواريين، ومنهم من يزعم أنه -أي الفارقليط- هو المسيح نفسه لكونه جاء بعد الصليب بأربعين يوماً وكونه قام من قبره، ومنهم من قال لا نعرف ما المراد

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣٣٥-٣٣٨) تحقيق د.محمد الحاج.

بهذا الفارقليط، إلا أن ابن القيم رحمه الله قد رد على إنكارهم وتحريفهم رداً شافياً، وقام بتحليل نصوصهم التي حملوها على غير محملها تحليلاً دقيقاً ثم قام بمطابقة تلك النصوص بعد أن كشف اللثام عنها بما يؤيدها من آيات القرآن الكريم.

البشارة الرابعة: البركة في ولد إسماعيل:

قال في التوراة في السفر الأول (التكوين (١٦/ ٧-١٢): «إن الملك ظهر لهاجر أم إسماعيل فقال يا هاجر!! من أين أقبلت؟ وإلى أين تريدين؟ فلما شرحت له الحال قال: ارجعي فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة وها أنت تحبلين وتلدين ابناً تسميه إسماعيل لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك وولدك يكون وحشي الناس[1]. وتكون يده على الكل ويد الكل مبسوطة إليه بالخضوع»[2]

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن هذه بشارة بمحمد ﷺ قائلاً: «فمن هذا الذي ينطبق عليه هذا الوصف سوى محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه؟ ويبين أيضاً أنه قد ورد في سفر التكوين (٢١/ ١٢-١٣): «إن الله قال لإبراهيم إني جاعل ابنك إسماعيل لأمة عظيمة إذ هو من زرعك» وليس هو سوى محمد بن عبدالله ﷺ، الذي هو من صميم ولده فإنه جعل لأمة عظيمة، ولم يأت من صلب إسماعيل من بورك وعُظم وانطبقت عليه هذه العلامات غير رسول الله ﷺ وأمته، ملأوا الآفاق وأربوا في الكثرة على نسل إسحاق[3].

ويؤكد ابن القيم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدي بني اسحاق بل كان في أيدي بني إسحاق النبوة والكتاب، فقد دخلوا مصر زمن يوسف

---

(١) يكون وحشي الناس كناية عن قتله أعدائه، أو عن السكن في البراري.

(٢) ذكره ابن القيم في (هداية الحيارى) (ص٣٢١)، وقد نقل ابن القيم هذه البشارة عن (الجواب الصحيح) (٣/ ٣١٣-٣١٤) وهذا من منهج ابن القيم وهو الاعتماد على الجواب الصحيح لابن تيمية.

(٣) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣٢١، ص٣٢٢).

مع يعقوب، ثم خرجوا منها لما بعث موسى وكذلك كانوا مع يوشع إلى زمن داود وملك سليمان الذي لم يؤت أحد مثله فلم تكن يد بني إسماعيل عليهم، ثم سلط الله عليهم نبوخذ نصر ولما بعث فيهم المسيح كفروا به فدمر الله عليهم وزال ملكهم وقطعهم في الأرض أمماً وكانوا تحت حكم الروم، ولم تكن يد إسماعيل عليهم في هذه الحالة ولا كانت فوق الجميع إلى أن بعث الله محمداً برسالته ﷺ وأكرمه بنبوته فصارت بمبعثه يد بني إسماعيل فوق الجميع وبسلطانهم قهروا سلطان فارس والروم والترك واليهود والنصارى والمجوس وعباد الأصنام وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر[١].

وهنا يبين ابن القيم أن اليهود لمّا لم يستطيعوا إنكار هذا النص حرفوه وأولوه على أنه بشارة بملكه وظهوره وقهره لا برسالته ونبوته.

وقد رد ابن القيم على إنكارهم هذا مبيناً أن الملك ملكان:

أحدهما: ملك جبار متسلط ليس معه نبوة.

والثاني: ملك نفسه نبوة.

وقد بين أن البشارة لم تقع بالأول لا سيما إذا ادعى صاحبه النبوة والرسالة، لأن البشارة لا تقع بملكه وإنما يقع التحذير من فتنته كما وقع التحذير من فتنة الدجال، وبين ابن القيم أيضاً أن هذا عند الجاحدين، بمنزلة أن يقال إنك ستلدين جباراً ظالماً طاغياً يقهر الناس بالباطل ويقتل أولياء الله ويبدل دين الأنبياء ويكذب على الله ونحو ذلك، فمن حمل البشارة على هذا فهو من أعظم الخلق بهتاناً وفرية على الله وليس هذا بمستنكر لأمة الغضب وقتلة الأنبياء والقوم البهت[٢].

---

(١) نفس المرجع (ص٣٥٠).

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣٥١) تحقيق د.محمد الحاج.

البشارة الخامسة : راكب الجمل

قوله في نبوة أشعيا: «قيل لي: قم ناظراً فانظر ما ترى تخبر به قلت أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار والآخر على جمل يقول أحدهما لصاحبه سقطت بابل وأصنامها»[١].

وقد فسر ابن القيم رحمه الله أن صاحب الحمار عندنا وعند النصارى هو المسيح وراكب الجمل هو محمد ﷺ وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار، ثم بين أنه بمحمد ﷺ قد سقطت أصنام بابل لا المسيح، ولم يزل في إقليم بابل من يعبد الأوثان من عهد إبراهيم الخليل إلى أن سقطت بمحمد ﷺ.

البشارة السادسة : ولادة العاقر :

قول إشعيا في مكة: «سري واهتزي أيتها العاقر التي لم تلد وانطقي بالتسبيح، وافرحي، ولم تحبلي، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي»[٢]

ويحلل ابن القيم هذا النص مبيناً ما يعنيه أشعيا من أهله هو أنهم من بيت المقدس، والعاقر هي مكة لأنها لم تلد قبل محمد ﷺ نبياً، ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس لأنه بيت الأنبياء ومعدن الوحي وقد ولد فيه أنبياء كثيرون[٣]

البشارة السابعة : دعوة الناس للحج :

ففي موضع آخر قول إشعيا «إنه ستملأ البادية والمدن قصوراً إلى قيدار، ومن رؤوس الجبال ينادونهم الذين يجعلون لله الكرامة ويبثون تسبيحه في البر والبحر»[٤].

---

(١) العهد القديم، أشعيا (٢١/ ٦-٩) وذكره ابن القيم في (هداية الحيارى) (ص٣٥٧) نفس المحقق.

(٢) العهد القديم، إشعيا (٥٤/ ١-٣).

(٣) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣٥٩) نفس المحقق.

(٤) إشعيا (٤٢/ ١١)

وقال: «ارفع علماً لجميع الأمم من بعيد فيصفر بهم من أقصى الأرض فإذا هم سراع يأتون»[1]

وهنا يوضح ابن القيم أن بني قيدار هم العرب، لأن قيدار ابن إسماعيل بإجماع الناس، والعلم الذي يرفعه هو النبوة، والصفير بهم دعاؤهم من أقصى الأرض إلى الحج. فإذا هم سراع يأتون وهذا مطابق لقوله عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧].

كانت تلك بعض النصوص التي تدل على البشارة بمحمد ﷺ مع العلم أن ابن القيم رحمه الله أورد أكثر من ثلاثين بشارة ولكنني أكتفي بهذا القدر من النصوص الواضحة التي تؤكد معرفة اليهود بالنبي محمّد ﷺ وتعد من البشارات والنصوص التي ساقها ابن القيم شاهداً على ثبوت نبوة نبينا في كتبهم وأن إنكار اليهود لنبوة محمد ﷺ هو عناد واستكبار.

وبجانب اعتماد ابن القيم على منهج النقل والتحليل والنقد في تكذيب اليهود وإنكارهم للنبوة نجده بجانب ذلك يستخدم أدلة عقلية ليبين كذبهم في دينهم وعلى نبينا محمد ﷺ فيثبت بهذا المنهج العقلي نبوة محمد ﷺ وغيره من الأنبياء كموسى وعيسى عليهما السلام.

وأنه لا يمكن ليهودي على وجه الأرض أن يصدق بنبوة موسى عليه السلام إلا بالتصديق والإقرار بنبوة محمد ﷺ وكذلك النصراني .. حيث استطاع ابن القيم بمنهجه العقلي أن يكشف تلاعب أهل الكتاب بالنصوص عندهم. ويكفي هذا شاهداً على قدرة ابن القيم العقلية في إلزام الخصم الحجة القوية إذا سلك طريق العقل والفكر في الحوار والجدال.

ونختم حديثنا في هذا الموضوع ببعض البراهين التي ساقها ابن القيم في الدلالة

---

(١) إشعيا(٥/٢٦).

على صدق وصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ والتي يظهر فيها برجاحة عقله وقوة حجته حين الاستدلال وسوق الحجج والبراهين وكذلك ما يثبته بطريق التواتر على أنه دليل قاطع على صحة وصدق نبوته ﷺ ومن ذلك قوله:

(«إن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به إلا ولمحمد ﷺ آيات مثلها أو ما هو في الدلالة مثلها وإن لم يكن من جنسها فآيات نبوته أعظم وأكبر وأبهر وأدل والعلم بنقلها قطعي لقرب العهد وكثرة النقلة واختلاف أمصارهم وأعصارهم واستحالة تواطئهم على الكذب .. فإن جاز القدح في ذلك كله ففي وجود موسى وعيسى وآيات نبوتهما أجوز وأجوز وإن امتنع القدح فيهما وفي آيات نبوتهما فامتناعه في محمد ﷺ وآيات نبوته أشد»[(١)].

ومن الملاحظ هنا أن ابن القيم رحمه الله يدلل على صدق نبوة محمد ﷺ عن طريق التواتر في نقل معجزاته ويعتبره دليل قطعي ومن ذلك التواتر الذي ذكره -رحمه الله- قرب عهدهم برسول الله ﷺ وكثرة النقلة، واستحالة تواطئهم على الكذب، واختلاف أمصارهم مبيناً أن العلم بآيات نبوته كالعلم بنفس وجوده بحيث لا يمكن المكابرة في ذلك.

(ومن الدلائل التي ذكرها ابن القيم أن الأنبياء المتقدمين بشروا بنبوته، وأمروا أممهم بالإيمان به، فمن جحد نبوته فقد كذب الأنبياء قبله فيما أخبروا به، وخالفهم فيما أوصوا به من الإيمان به، فالتصديق به لازم من لوازم التصديق بهم، وإذا انتفى اللازم انتفى ملزومه قطعاً، وبيان الملازمة ما تقدم من الوجوه الكثيرة التي تفيد بمجموعها القطع على أنه ﷺ قد ذكر في الكتب الإلهية على ألسن الأنبياء، وإذا ثبتت الملازمة فانتفاء اللازم موجب لانتفاء ملزومه[(٢)].

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٥٧٨) تحقيق د.محمد الحاج.

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٥٧٧) تحقيق د.محمد الحاج.

ومن الملاحظ هنا استخدام ابن القيم للقياس المنطقي، حيث ظهرت براعته رحمه الله في بيان التدليل على صدق نبوته وكأنه خاطب أصحاب المنطق والعقل بنظرية علمية منطقية، بين فيها المقدمات، ثم أظهر النتيجة، وكأنه يقول:

- كل الأنبياء صدقوا وأقروا بنبوة محمد ﷺ.
- واليهود والنصارى صدقوا وأقروا بهؤلاء الأنبياء.

إذن فلا بد أن تكون النتيجة أن يصدق اليهود والنصارى ويقروا بنبوة محمد ﷺ.

(ما نقله ابن القيم رحمه الله عن كتاب الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إسرائيل عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٠].

وهنا يستشهد ابن القيم على صحة نبوته بعلماء أهل الكتاب الذين أسلموا ودخلوا علناً في دينه وشهدوا أنه النبي الذي كانوا يتدارسون صفاته في كتبهم وينتظرون خروجه، كابن سلام والنجاشي وغيرهما كثير، وفي هذا رد بليغ يستخدمه ابن القيم حجة على الجاحدين منهم، المنكرين لصفاته في كتبهم، وهنا يقول ابن القيم: «وإذا شهد له واحد من هؤلاء، لم يوزن به ملء الأرض من الكفرة ولا تعارض شهادته بجحود ملء الأرض من الكفار كيف والشاهد له من علماء أهل الكتاب أضعاف أضعاف المكذبين له منهم؟ »[1]

(ومما استدل به ابن القيم على صدق نبوته تأكيده امتناع أن تخلو الكتب المتقدمة عن الأخبار بمثل هذا الأمر العظيم الذي لم يطرق العالم من حين خلق إلى قيام الساعة أمر أعظم منه فلا بد أن تطابق الرسل على الإخبار به، ويتساءل ابن القيم: «إذا كان الدّجال -رجل كاذب يخرج في آخر الزمان وبقاؤه في الأرض أربعون يوماً وقيل ستة أشهر- قد تطابقت الرسل على الإخبار به، وأنذر به كل نبي قومه من نوح إلى خاتم

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣١٣-٣١٤) نفس المحقق.

الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أجمعين، فكيف تتطابق الكتب الإلهية من أولها الى آخرها على السكوت عن الإخبار بهذا النبأ العظيم، فهذا مما لا يسوغه عقل عاقل وتأباه حكمة أحكم الحاكمين، بل الأمر بضد ذلك[١]

حيث يؤكد ابن القيم أن الله سبحانه وتعالى ما بعث نبياً إلا عليه الميثاق بالإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

المبحث الثالث

فرق اليهود وتحريفهم للتوراة

المطلب الأول

فرق اليهود كما يراها ابن القيم

أخبرنا النبي ﷺ أن كلاً من اليهود والنصارى والمسلمين قد افترقوا إلى عدة فرق ففي الحديث الذي رواه الترمذي في سننه بسنده المتصل عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[٢]. وفي جزء من الحديث الذي رواه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣١٥) نفس المحقق.

(٢) الترمذي، محمد بن عيسى (صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي المالكي) (٥/ ٢٥)، كتاب الإيمان، ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث رقم (٢٦٤٠). والحديث صحيح، [المجلة].

أنه قام فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين ملة وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين..» إلخ الحديث[1].

ولقد اهتم كثير من علماء المسلمين بدراسة هذا الجانب الذي أخبر عنه النبي ﷺ فكتبوا وتعرفوا على كثير من هذه الفرق، فكان ابن القيم رحمه الله قد ذكر لنا أن اليهود وإن كانوا مفترقين افتراقاً كثيراً إلا أنه يجمعهم فرقتان (القرّاؤون والربانيون)[2].

ومن الملاحظ أن ابن القيم عندما تناول الحديث في هاتين الفرقتين قد سار وفق منهج المقارنة بحيث وضح أوجه الشبه والمخالفة بينهما إلا أنه عندما جمع لنا الفرق اليهودية في هاتين الفرقتين لم يحدد لنا تاريخ نشأتهما بل إن حديثه عنهما كان مقطعاً ومنتشراً بحيث إنه لم يتحدث عن إحداهما بحديث له بداية ونهاية ملموسة ومعروفة، بل كان القفز من فرقة إلى أخرى واضحاً، ولعل السبب في ذلك أنه كان قد أخذ كلاماً كثيراً في هذا الجانب عن السموأل بن يحيى، فالباحث عندما يرجع إلى هذا الموضوع في كتاب (إفحام اليهود) للسموأل يجد وكأن ابن القيم قد نقله كاملاً إلى كتبه[3].

وهنا رأيت من الواجب أن أرتب حديث ابن القيم عن هاتين الفرقتين ترتيباً

---

(١) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (سنن أبي داود) (٤/ ١٩٨) كتاب السنة باب شرح السنة حديث رقم (٤٩٥٧).

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤٦٨) تحقيق د.محمد الحاج.

(٣) قارن بين ما كتبه ابن القيم في هذا الموضوع في كتابه (هداية الحيارى) (ص٤٦٨) وبين ما كتبه السموأل بن يحيى في كتابه (إفحام اليهود) (ص١٧١) من تحقيق د.محمد عبدالله الشرقاوي.

أ- أن علماء الاختصاص في هذا الجانب قد تكلموا عن أكثر من هاتين الفرقتين مشيرين إلى ظروف نشأتها ومبينين لمبادئها وتعاليمها ونحو ذلك وأن بعض العلماء المحدثين قد تكلموا عن بعض الفرق الحديثة التي ظهرت في اليهودية، فالحديث لا يقتصر على ما ذكره ابن القيم رحمه الله وإن كان له الفضل في بيان الكثير من هذه الأمور المتعلقة باليهود وغيرهم، فسأذكر بعض أهم هذه الفرق التي ظهرت في اليهودية.

ب- أن هذه الفرق اليهودية قد ارتبط ظهورها بعوامل رئيسية ينبغي أن يشار إليها قبل البدء في الحديث عن الفرق نفسها علماً بأن ابن القيم -رحمه الله- لم يتحدث كثيراً عن هذه العوامل، سوى ما ذكره في سبب ظهور فرقة القرّائين.

جـ- لم يكن الخلاف بين تلك الفرق خلافاً سطحياً وإنما كان في الجوهر والأساس والسبب في ذلك يعود لاختلاف نظراتهم نحو الكتب المقدسة والى كثرة هذه الكتب التي ظهرت في فترات متابينة وبأيد كثيرة ومختلفة.

عوامل نشأة الفرق اليهودية:

يرجع الدكتور عرفان عبدالحميد[1] نشأة الفرق اليهودية إلى عاملين رئيسيين نوجزهما فيما يلي:

أ- خضوع بني إسرائيل للهيمنة والاحتلال والسيطرة الأجنبية والذي كان يرافقه عمليات تهجير قسري واضطهاد ومعاناة، وما تولده من ردود فعل دينية متنوعة ومتعارضة ومتفاوتة بين الدعوة إلى الثورة والتمرد كما فعل المكابيون[2] أو

(١) فتاح، عرفان عبدالحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص٩١-٩٢).

(٢) المكابيون: وهم قادة الثورة المكابية التي اشتهرت في التاريخ اليهودي، فبعد أن احتل قورش «ملك =

الاستسلام للأقدار والارتكاس من غيبوبة كاملة بدعوى أن ما أصابهم لم يكن إلا لأنهم ارتدوا عن التوراة فليس لهم إلا انتظار المخلص الموعود لإنقاذهم كما كان الحال مع الحاسديم[1]، أو اتباع سياسة التوافق والتفاهم مع الأعداء طمعاً في الحصول على التسامح الديني الذي يهيئ لهم فرصة العودة إلى دراسة التوراة والتلمود باعتقاد أن مرتكز الوجود المعنوي لليهود هو التوراة فهو الكفيل بالحفاظ

الفرس» بلاد بابل سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين سنة (٥٣٨ ق.م)، حيث عادت طوائف من اليهود من بابل وأعادوا بناء الهيكل لكنهم ظلوا تحت الحكم الفارسي إلى أن زحف الاسكندر الأكبر المقدوني (اليوناني) واحتل بلاد الشام وعندما مات خلف اتباعه البطالة في مصر وفلسطين والسلوقيون في سوريا، وفي هذه الفترة بدأ اليهود أول تمردهم على اليونان، وقد استطاع السلوقيون انتزاع الحكم من البطالة وقد عاملوا اليهود معاملة قاسية وحاولوا تغيير دين اليهود إلى وثنيتهم اليونانية، وبالفعل فقد تحول عدد من اليهود إلى الوثنيات اليونانية ودخلت كثير من الطقوس والعبادات الوثنية إلى اليهود بالقوة، وأدت هذه المعاملة القاسية إلى انفجار ثورة المكابيين حوالي (١٦٦ ق.م)، عندما قام الملك السلوقي (انطوخيوس) بتدمير الهيكل ونشر عبادة الأوثان، وقد ثار الكاهن «ميتاس» على هذا الوضع ومعه أبناؤه الخمسة والذي تولى ابنه الأكبر بعد وفاته والمسمى «يهوذا المكابي» قيادة الثورة المكابية وهو اللقب الذي اشتهرت به هذه الأسرة واستطاع يهوذا أن يستولي على أورشليم سنة (١٦٥ ق.م) في الخامس والعشرين من شهر (Keslive) الذي يقابل شهر كانون أول (ديسمبر) ولهذا فهم يحتفلون بهذا اليوم من كل عام ولمدة ثمانية أيام يشعلون فيها الشموع ويطلقون على هذا اليوم يوم عيد الإهداء (الخانوكة)، وقد قتل آخر ملك من ملوك المكابيين في عهد «هيرودوس» الروماني الذي تم تنصيبه ملكاً على فلسطين (البار، محمد علي (المدخل لدراسة الثورة) (ص١٠٥)، وشلبي، أحمد (مقارنة الأديان -اليهودية) (ص٩٤)، وظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص١٧١)، وفتاح، عرفان عبدالحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص١٤٣)، ومصطفى، عبدالعزيز (قبل أن يهدم الأقصى) (ص٦٩).

(١) الحاسديم: أي الأتقياء وهي حركة دينية يهودية ظهرت في العصور الحديثة فانتعشت في منتصف القرن الثامن عشر على يد حاخامين من المتجردين في الطرق الصوفية الباطنية «القبالة» وفي مقدمتهم الحاخام «بعل شيم طوب» و«زلمان ملودي» وهما من منطقة بولندة، وقد انتشرت ونشطت هذه الحركة في أوروبا الشرقية وجزء من أوروبا الغربية، ويعرف أتباعها بالمتشددين في تطبيق أحكام التعاليم المكتوبة والشفوية ويفضلون العزلة بأحياء ومستعمرات خاصة بهم ومن أهدافهم إعادة بناء الهيكل وإقامة مملكة الرب في القدس ويعتبر الرقص والموسيقى والغناء من الأشياء الأساسية عند ممارسة العبادات الجماعية، (ظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص٢٦٤)، وفتاح، عرفان عبد الحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص١١٥)، وحسن، د.جعفر هادي (فرقة الدونمة بين اليهود والإسلام) (ص٥٥).

على هويتهم الدينية ووجودهم المعنوي كما كان الحال مع الصدوقيين[1].

ب- تأثيرات الثقافات الأجنبية التي كانت تتزامن عادة وتتولد عن السيطرة الأجنبية المباشرة أو عن عمليات التهجير الجماعية لليهود إلى بيئات جديدة لها مكوناتها الثقافية واضطرار اليهود للدخول معها في تبادل ثقافي كما كان الحال إبان الأسر البابلي[2] والهيمنة الهلنستية الوثنية[3] أيام الحكم الروماني المباشر على فلسطين (٦٦-٧٠م).

واليهود أنفسهم يعترفون أن معالم اليهودية وبنيانها الفكر والعملي إنما استكمل

---

(١) الصدوقيون: نسبة إلى «صدوقيم» بالعبرية من باب التواضع بمعنى العادلين (أهل العدل) وهم طبقة أرستقراطية عريضة الثراء. وهي حركة تأثرت كثيراً بالثقافة اليونانية فأنكروا البعث وأنكروا التعاليم الشفوية وأنكروا القضاء والقدر ويرون أن الإنسان يخلق أفعاله، وينكرون عقيدة المسيح المنتظر. ولا يعتقدون بالجنة أو النار، والإله في نظرهم إله قومي وأنه إله إسرائيل فقط وهم على عكس الفريسيين في كل شيء، وقد اندثر الصدوقيون- مثل أكثر الفرق القديمة- لأن عقيدتهم تتصادم مع عقيدة اليهود في كثير من الأمور (البار، محمد علي(المدخل لدراسة التوراة) (ص٢٥٣)، وظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص٢١٤)، وشلبي، وأحمد (مقارنة الأديان -اليهودية) (ص٢٣٠)، وفتاح، عرفان عبدالحميد (اليهودية عرض تاريخي (ص١٠٢).

(٢) الأسر البابلي: ويعود تاريخه إلى نهاية مملكتي اليهود وما تبع ذلك من نفي وأسر. فقد كانت لليهود مملكة في شمال فلسطين وتسمى مملكة إسرائيل وعاصمتها شكيم (نابلس) ومملكة أخرى في الجنوب وهي مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم. وقد سقطت مملكة إسرائيل على يد سرجون -ملك الآشوريين- سنة (٧٢١ق.م) ومحا هذه المملكة من الوجود وأزال شعبها قتلاً وتشريداً ونفى ملكها وبعض رجاله إلى مملكته في بابل، أما مملكة يهوذا في الجنوب فظلت حتى زحف فرعون مصر عليها سنة (٦٠٨ ق.م) واحتلها وقد استمر زحفه حتى احتل مملكة اسرائيل في الشمال التي استولى عليها الآشوريون، فثار لذلك ملك بابل الجديد (بختنصر) الذي زحف على فلسطين بمملكتيها الشمالية والجنوبية وألحق الهزيمة بفرعون مصر وقتل آخر ملوك اليهود في المملكة الجنوبية ونهب أورشليم ودمر المعبد (الهيكل) سنة (٥٨٧ ق.م) وسبى أكثر السكان إلى بابل وانتهى بذلك ملك اليهود في فلسطين وعرف هذا السبي بالأسر البابلي أو السبي البابلي (شلبي، أحمد (مقارنة الأديان اليهودية) (ص٩١)، ومصطفى ، عبدالعزيز (قبل أن يهدم الأقصى) (ص٦٧)، والبار، محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص٩٨-٩٩).

(٣) الهلنستية: وهي عبارة عن إطار فلسفي جامع لثقافة وثنية. صادرة عن روح تعددية لا تؤمن بالتوحيد والتنزيه وتؤله القيصر الإله، وتفرض عبادته قسراً مع طقوس وثنية أخرى على من يخضع لسلطانها السياسي جبراً (فتاح، عرفان عبدالحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص٩٢).

شروطه إبان الأسر البابلي كالتوحيد، وجمع التوراة .. إلخ[1].

إضافة لما سبق نستطيع أن نقول بأن كثرة المصادر المقدسة عند اليهود والتي كتبت بأيد مختلفة أوجدت أيضاً فرقاً مختلفة، كما أن ظهور العهد الجديد أوجد من اليهود من يفسرون العهد القديم في ضوئه والذي كان له الأثر في إيجاد تفسيرات كثيرة متباينة ومختلفة نادت بها فرق جديدة ومختلفة.

وقد جمع ابن القيم فرق اليهود المختلفة من غير أن يسميها في فرقتين هما (القرّاؤون والربانيون)

أولاً : القرّاؤون:

يذكر ابن القيم القرّائين وهم أصحاب «عانان وبنيامين»[2] لما رأوا الكذب على

(١) فتاح، عرفان عبد الحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص٩٢) حيث يأتي اعتراف اليهود هذا من المؤرخ اليهودي يوسيفوس وهو ما لخص حديثه د.عرفان في كتابه، وقد بين د.عرفان أن من أشهر كتب يوسيفوس ثلاثة: وهي: ١-حرب اليهود ٢- العاديات اليهودية ٣- الرد على أبيون.

(٢) عانان وبينامين: حيث ذكرهما ابن القيم دون أن يعرف بهما، والحقيقة أن عانان أو (عنان) هو عنان بن داود الذي أنشأ فرقة القرّائين أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (ت١٥٨هـ - ٧٧٥م) وكان عنان مرشحاً لتولي منصب حاخام العراق الأكبر. ونظراً لما عرف عنه من غلو ونزعة متطرفة في نظر زعماء اليهود الربانيين (الفريسيين) لعدم قبوله تعاليم التلمود، فقد تجاوزوه إلى أخيه الأصغر منه واسمه (حنانيا) مما تسبب في خروجه عن القوم، وانشقاقه عنهم مؤسساً مذهبه الذي لا يقر ولا يعترف بشرعية التلمود وعرف هو وأتباعه بأبناء الكتاب الحرفيين أو القرّائين، وقد انطلق عنان بعيداً عن أخيه الذي استولى على منصب حاخام العراق الأكبر، حيث ذهب إلى فلسطين وركز فيها حملته على الفريسيين وعلى تعاليم التلمود وأبان زيفها وبطلانها ومصادمتها للعقل والمنطق والدين، ومن الواضح أن عنان بن داود قد تأثر بالفكر الإسلامي ويقول الفريسيون (الربانيون) أن ظهور القرّائين كان بتأثير المسلمين.
أما بنيامين: فهو بنيامين بن موسى النهاوندي من مدينة نهاوند في إيران وهو من كبار علماء هذه الفرقة وهو مؤلف كتابين مهمين بالعبرية أحدهما كتاب الفرائض والآخر كتاب الأحكام (فتاح، عرفان عبدالحميد (اليهودية، عرض تاريخي) (ص٩٤-٩٥) وظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص٢٤٧-٢٥٦) والبار، محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص٢٧٨-٢٨١).

الله وعلى التوراة وعلى موسى من قبل أولئك الذين يعتبرون أنفسهم الفقهاء الذين صنعوا المشنا والتلمود[1] جيلاً بعد جيل يحرمون فيها ما يشاؤون، كان هذا دافعاً لكي يطرح القراؤون كل الترهات التي وضعها الحاخاميم وألفها الفقهاء من الأسلاف قبلهم، والتزموا -أي (القرّاؤون)- بنص التوراة فقط دون تحريف متمسكين بما يقرأ من التوراة الظاهرة مع عدم تحريف وإبطال معانيها[2].

ويذكر ابن القيم أن أكثر القرّائين قد خرجوا إلى دين الإسلام ونفعهم تمسكهم بالظواهر وطعنهم بالفقهاء الكذّابين المفترين على الله وهم كثرة في فرقة الربانيين الذين زعموا أن الله تعالى كان يخاطب جميعهم في كل مسألة بالصوت الذي يسمونه

---

(١) المشنا والتلمود: ذكرت عند الكلام عن الفريسيين أنهم يرون أن التوراة ليس هي كل الكتب المقدسة، وإنما هناك بجانبها روايات شفوية وهذه الروايات هي السنن والتقاليد المتوارثة التي تنقل شفهاً جيلاً بعد جيل بطريق الآحاد وهذه الروايات هي التي شكلت التلمود، حيث اكتمل جمعه وشرحه في فترة زمنية طويلة، وفي عام (١٥٠م) خاف أحد الحاخامات المسمى: «يوحناس» أن تلعب أيدي الضياع بهذه التعاليم الشفوية المتناقلة فجمعها في كتاب سماه «المشناة» والتي تعني الشريعة المكررة وقد أدخل حاخامات فلسطين وبابل كثيراً من الزيادات على ما دونه «يوحناس» وقد أتم «الربى يهودا هاناسي» في نهاية القرن الثاني بعد الميلاد تدوين وتمحيص وتدقيق هذه الزيادادت وأصبحت كلمة «المشنا» تضم كل ما كتب من عهد «يوحناس» إلى عهد «الربي يهودا» ثم أخذ علماء اليهود بعد ذلك يكتبون عليها حواشي وشروحات وتفسيرات سميت «الجمارا» وهي كلمة آرامية تفيد الإتمام.
ومن المشنا والجمارا يتكون التلمود وبما أن الجمارا (أي الشرح) قد حصل في بيئتين مختلفتين هما فلسطين غرباً والعراق (بابل) شرقاً فقد أدى ذلك إلى ظهور تلمودين التلمود الغربي وهو الذي يسمى (التلمود الأورشليمي) والتلمود الشرقي وهو الذي يسمى «التلمود البابلي» ويعتبر التلمود البابلي أفضل من الأورشليمي لأنه كتب في فترة اتسمت في تاريخ اليهودية بالهدوء والاستقرار والتمتع بالحرية في إنشاء المدارس الدينية ويعتبر التلمود البابلي أكبر وأرتب من الأورشليمي، (شلبي، أحمد (مقارنة الأديان -اليهودية) ص٢٧٠)، وفتاح، عرفان عبدالحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص٨٣)، وظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص٦٦-٨٤).

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤٧٢-٤٧٣) تحقيق د. محمد الحاج، و(إغاثة اللهفان) (٢/ ص٣٠٤-٣٠٥) تحقيق طه سعد.

«بث قول» أي أن الحق مع النقية فلان[1].

والخلاصة: أن القرّائين يمثلون القلة بين اليهود الذين انفصلوا بأنفسهم عن الفقهاء (الربانيين) والقرّائين أيضاً لا يعترفون إلا بالتوراة (العهد القديم) وليست عندهم روايات شفوية (تلمود) كالذي يؤمن به (الربانيون) ولذلك كانت تسميتهم بالقرّائين لاعتمادهم فقط على الظاهر المقروء من التوراة فقط، وقد أطلق عليهم (العنانية) نسبة إلى عنان بن داود[2] وهم مجتهدون في المسائل التي خطأوا فيها السلف من الحاخاميم مثل مسألة (الطريفا) حيث يعتبر الربانيون أكل لحم الطريفا محرم ويفسرون الطريفا بأنه الحيوان الذي ذبحوه وقد وجدوا رئته فيها ثقب، أو أن رئته ملتصقة ببعضها، أو ملتصقة بالقلب أو الظهر حتى لو كان هذا الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة اعتبروا هذه الذبيحة رجس ونجس وحرام علماً بأن هذا عدوان منهم وافتراء وكذب لأن معناها في لغتهم وتوراتهم «الفريسة التي يفترسها السبع» ففي التوراة «ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوه»[3] فهذا الذي حرمته التوراة من الطريفا ولهذا السبب وغيره من الحماقات الشنيعة والافتراء الفاحش والكذب الكثير على الله وعلى التوراة خالف القرّاؤون الربانيون وانفصلوا بأنفسهم عن هؤلاء الكذابين ولكل من يقول بمقالاتهم[4] وقد انتهت فرقة القرّائين بظهور بعض العلماء الذين تصدوا لها ومن أبرز هؤلاء العلماء سعيد بن يوسف الفيومي الذي كان له الأثر الكبير في ضعف هذه الفرقة والتي تحولت أخيراً إلى أقلية انحصر وجودها في تركيا

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤٧٢-٤٧٣) تحقيق د. محمد الحاج، و(إغاثة اللهفان) (٢/ ص٣٠٤-٣٠٥) تحقيق طه سعد.

(٢) السقا، أحمد حجازي (نقد التوراة) (ص٦٤).

(٣) الخروج (٢٢/ ٣٠).

(٤) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤٧٢-٤٧٣)، تحقيق د. محمد الحاج، و(إغاثة اللهفان) (٢/ ص٣٠٤)، نفس المحققين.

ومصر وفي فلسطين قرب الرملة وتل أبيب ويقدر عددهم بعشرة آلاف نسمة[1].

ثانياً: الربانيون:

وهم الفرقة الثانية التي تحدث عنها ابن القيم ووصفهم بأصحاب القياس مؤكداً أنهم أكثر عدداً من القرّائين، وفيهم الحاخاميم المفترون على الله تعالى الكذب، أصحاب الحماقات والتنطع، والدعاوي الكاذبة، وهم الذين يزعمون أنهم كانوا إذا اختلفوا في شيء من المسائل يوحي الله تعالى إليهم بصوت يسمعه جمهورهم يقول: الحق في هذه المسائل مع الفقيه فلان، ويسمون هذا الصوت: «بث قول» ويعتبرهم ابن القيم أنهم من أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم فينظرون إلى من ليس على ملتهم ومذهبهم كما ينظرون إلى الحيوان البهيم، وينظرون كذلك إلى ذبائح الأمم ومآكلهم كما ينظرون إلى العذرة، ويذكر عنهم ابن القيم أن حاخاميم كلما كانوا أكثر تكلفاً وأشد إصراراً، وأكثر تحريماً قالوا: هذا هو العالم الرباني، وهم أبداً يعتقدون الصواب والحق مع من يتشدد ويضيق عليهم.

ويذكر ابن القيم أن الذي يدعوهم للتضييق والتشديد على أنفسهم خوفهم من اختلاط مذاهب الأمم بهم فيؤدي ذلك بهم إلى موافقتهم والخروج من اليهودية دينهم[2].

وخلاصة القول فإن هذه الفرقة كما بينهم ابن القيم يميزون أنفسهم على غيرهم ولذلك فقد أطلق عليهم اسم الفريسيون (الفريزيون) أي المفروزين الذين امتازوا عن الجمهور وأصبحوا لعلمهم وورعهم واتصالهم بأسرار الشريعة من الصفوة المختارة، فالعامة من غيرهم يوصفوا بأنهم «عام هاآرص» أي عوام الأرض[3]. وهي صفة ذم

---

(١) فتاح، عرفان عبدالحميد، (اليهودية عرض تاريخي) (ص٩٥-٩٦).

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤٧٤)، تحقيق د.محمد الحاج.

(٣) ظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص٢١٠)

وهـؤلاء الربـانيون (الفريسـيون) يؤمنـون -إلى جـانب التــوراة- بـالتلمود وأن للحاخامات سلطة عليها وصفة العصمة بحيث لو قال لـك الحاخـام أن يـدك اليمنـى هي اليسرى وبالعكس فصدق قوله ولا تجادله[١] وعندهـم أن العـالم لم يخلـق إلا مـن أجل اليهود ولو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة في الأرض، وهي من الفرق المشـتهرة بالكذب والنفاق وبيع الذبـائح المقـررة علـى اليهـود وأكـل أمـوال النـاس بالبـاطل، واهتموا بالشكليات والرياء في العبادة واشتهروا أيضـاً بوضـع الحيـل للتخلـص مـن قوانين الشريعة، وتعتبر هذه الفرقة من أشد فرق اليهود عتوّاً وتجبراً[٢].

المطلب الثاني

منهج التحليل والنقد عند ابن القيم في إثبات تحريف التوراة

أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بـالتوراة[٣] فيهـا هـدى ونـور، متضمنـة العقيـدة

---

(١) شلبي، د. أحمد (مقارنة الأديان-اليهودية) (ص٢٢٧-ص٢٢٨).

(٢) البار، محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص٢٤١-٢٤٩).

(٣) التوراة: وهي كلمة عبرانية تعني: الشريعة أو التعليم وهي تطلق على الأسـفار الخمسـة بالدرجـة الأولى وقد تطلق -مجازاً أو توسعاً- على العهد القديم (Old Testement) وقد اختلف في عدد أسفاره لكنه يقسم إلى ثلاثة أقسام الأول: الأسفار الخمسة الأولى، وهي الـتي أنزلهـا الله علىموسـى في طـور سـيناء وهي كما يلي:

١- سفر التكوين (سفر الخليقة) وفيه ذكر خلق العالم وقصة آدم ونوح والطوفان وإبراهيم واولاده حتـى هجرة العبرانيين إلى مصر بسبب القحط ويقع في خمسين إصحاحاً.

٢- سفر الخروج: أي خروج اليهود من مصر وفيه قصة حياة موسى عليه السلام وفرعون وخـروج بـني إسرائيل من مصر وصعـود الجبـل وإيتـاء الله تعـالى لـه الألـواح -الوصايـا العشـر- ويقـع في أربعـين إصحاحاً.

٣- سفر اللاويين (سفر الأحبار): نظراً لأن الشرائع والطقوس الكهنوتية تشغل المكـان الأول وفيـه مـن الأحكام والفرائض والحدود وما يجوز أكله وحكم القربـان والطهـارة .. إلخ ويقـع في سـبعة وعشـرين =

والشريعة، وقد أنزلها الله سبحانه على موسى رسوله إلى بني إسرائيل ليلزمهم بأحكامها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة:٤٤]، وفي سفر التثنية وهذه هي الشريعة التي وضعها موسى لبني إسرائيل مع الفرائض والسنن والأحكام التي كلم بها موسى بني إسرائيل عند خروجهم من مصر»[1].

ومن المعلوم أن موسى -عليه السلام- قد أعطى بني إسرائيل نصف سورة بحيث

إصحاحاً.

٤- سفر العدد: وسُمي بهذا البروز ظاهرة التعداد حيث يورد إحصاء تفصيلي للشعب الراحل مع موسى في الصحراء، كما أن الأعداد المبينة للأعداد والأرقام حول الذبائح وعدد المدن والقرى ونحو ذلك تكثر فيه كثرة تلفت النظر وفيه بعض الشرائع وأخبار موسى وبني إسرائيل في الميتة وقصة العجل وهو ستة وثلاثون إصحاحاً.

٥- سفر التثينة (سفر تثنية الاشتراع) أي إعادة الشريعة وتكرارها على بني إسرائيل مرة ثانية عند خروجهم من سيناء ووصولهم إلى سهول النقب وجنوب الأردن، وفيه الأخبار الهامة والوصايا والحكام والإنذارات ونشيد موسى للشعب ويقع في أربعة وثلاثين إصحاحاً وهذه الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) تعتبر القسم الأول من العهد القديم أما القسم الثاني فيحتوي على أسفار الأنبياء الذي يتحدث عن تاريخ بني إسرائيل بعد موت موسى إلى خراب الهيكل والسبي البابلي، أما القسم الثالث فهو الكتب والصحف ويعنى بالحكم والأمثال والمزامير والأخبار التاريخية الخاصة باليهود بعد خراب الهيكل.

وعموماً فإن كلمة التوراة وردت في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة وهذه الآيات هي: (٣،٤،٤٨،٥٠،٦٥،٩٣، مرتين، كل هذه الآيات في سورة آل عمران) أما في المائدة ففي الآيات (٤٣، ٤٤، ٤٦ مرتين، ٦٦٦، ٦٨، ١١٠) (وفي سورة الأعراف الآية رقم ١٥٧، وفي التوبة الآية ١١١، وفي الفتح الآية ٢٩، وفي الصف الآية ٦، وفي الجمعة الآية ٥) (شتيوي، د.محمد شلبي(التوراة دراسة وتحليل) (ص٩-١٠) وظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص١٤-١٦) وفتاح عرفان عبد الحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص٧٢-٧٤)

(١) التثنية (٤/ ٤٤-٤٥)

لا تنسى من أفواههم يقول ابن القيم: «ولم يبذل موسى عليه السلام من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة»[1] ويبين ابن القيم أن هذه السورة مشتملة على ذم طبائعهم، وأنهم سيخالفون شرائع التوراة، وأن السخط يأتيهم بعد ذلك، وتخرب ديارهم، ويسبون في البلاد. فهي كالشاهد عليهم[2].

ويستنتج ابن القيم من ذلك أن غيرها من السور ليس كذلك وأنه يجوز أن ينسى من أفواههم، وهذا يدل على أن موسى عليه السلام قد دفع ببقية التوراة إلى أولاد هارون وجعلها فيهم وصانها عمن سواهم، وهؤلاء الأئمة الهارونيون قد قتلهم بختنصر على دم واحد يوم استولى على بيت المقدس كما يذكر ابن القيم حيث تابع رحمه الله قائلاً: «فلما رأى عزرا أن القوم قد أحرق هيكلهم، وزالت دولتهم، وتفرق جمعهم، ورفع كتابهم جمع مع محفوظاته، ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما اجتمعت منه هذه التوراة التي بأيديهم ولذلك بالغوا في تعظيم عزرا هذا غاية المبالغة»[3] قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

ولهذا فإن الله سبحانه قد توعد بالهلاك هؤلاء الذين يكتبون التوراة بأيديهم فيحرفونها ويدسون فيها الأكاذيب والإفتراءات موهمين الناس أنها من عند الله ليشتروا بهذا الفعل المنكر ثمناً قليلاً هو الاحتفاظ بمراكزهم وأكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

وهنا يؤكد ابن القيم ما قامت به أمة الغضب -كما يصفهم- من أحداث التغيير والتبديل والتحريف والزيادة والنقصان وسوء التأويل ونحو ذلك حيث قال رحمه الله

---

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣٢٥) تحقيق طه سعد.

(٢) نفس المرجع السابق، (٢/ ٣٢٦) نفس المحقق.

(٣) نفس المرجع السابق، (٢/ ٣٢٦) نفس المحقق.

واصفاً التوراة التي بأيديهم الآن قائلاً: «وفي التوراة التي بأيديهم من التحريف والتبديل، وما لا تجوز نسبته إلى الأنبياء ما لا يشك فيه ذو بصيرة، والتوراة التي أنزلها الله على موسى بريئة من ذلك»[1] وهنا نستذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣].

ومن الملاحظ أن ابن القيم رحمه الله قد فرق بين التوراة المنزلة على موسى عليه السلام وبين التوراة التي بأيديهم الآن والتي أرجع ابن القيم كتابتها تاريخياً إلى زمن السبي البابلي كما أنه رحمه الله بجانب هذا قد أكد وقوع التحريف في ذات نصوص التوراة، وهو هنا يعتمد على ركنين أساسيين في إثباته تحريف التوراة:

الركن الأول:

استكشافه للعوامل التاريخية وذلك من خلال تفحصه للظروف التاريخية التي مرت بها التوراة من زمن موسى عليه السلام وماتلاه من وقوع اليهود في الشرك والكفر ونحو ذلك ومن نسيانهم أيضاً ولذلك بين ابن القيم لماذا لم يدفع موسى عليه السلام بكل التوراة إلى بني إسرائيل سوى ما بذله لهم من نصف سورة، وهذا يدلل تاريخياً أن اليهود بأحبارهم وحاخاميهم وحرّفوا في نصوص التوراة بعد وفاة موسى عليه السلام بعد أن ضاعت التوراة من تابوت العهد، وأكد ابن القيم أن التحريف تاريخياً وقع في ذلك الزمن الذي جمع فيه عزرا والكهنة فصولاً من محفوظاتهم وما تلا ذلك من دور أمة الغضب في تحريفها وتبديلها.

---

(١) ابن القيم، (هداية الحيارى) (ص٤١٦).

الركن الثاني:

تمحيص النصوص وذلك بفضح ألاعيبهم وكشف أكاذيبهم وافتراءاتهم التي ملأت التوراة بحيث بدت مخالفة لصريح المنقول والمعقول لتكون شاهداً على وقوع التحريف فيها.

وقد أورد ابن القيم أمثلة كثيرة من نصوص التوراة أثبت من خلال منهج التحليل والنقد وقوع التحريف فيها، وسأكتفي بذكر بعض الأمثلة التي ساقها ابن القيم في التدليل على ذلك وقد استعان إلى جانب تحليله ونقده بالقرآن الكريم في معرض رده على كذبهم، وبكلام علمائهم أحياناً أخرى في رده على من ينكر تحريفها من اليهود أنفسهم.

وإليك بعض هذه الأمثلة:

ما رموا به رب العالمين بكذبهم حيث قالوا في التوراة: «إن الله استراح في اليوم السابع من خلق السموات والأرض»[1]، وقد رد ابن القيم على كذبهم هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، أي تعب.

قولهم في بعض دعاء صلواتهم: «انتبه كم تنام يا رب استيقظ من رقدتك»[2]

ويوضح ابن القيم بأنهم قد تجرأوا على رب العالمين بهذه المناجاة القبيحة كأنهم يناجونه ويخبرونه أنه قد اختار الخمول لنفسه وأحبائه، فيهزؤونه بهذا الخطاب للنباهة واشتهار الصيت، ويرد ابن القيم على كلامهم هذا بما استعانه من كلام علمائهم الذين أسلموا حيث يقول: «قال بعض أكابرهم بعد إسلامه»[3] فترى أحدهم إذا تلا

---

(١) التكوين (٢/ ٢) وقد أورده ابن القيم ورد عليه في (هداية الحيارى) (ص٤١٨-٤١٩).

(٢) مزامير (٣٥/ ٢٣، ٤٤/ ٢٤).

(٣) المقصود به هو السموأل بن يحيى المغربي، وهذه العبارة التي نقلها ابن القيم عند السموأل في كتابه (إفحام اليهود) (ص١٣١) تحقيق الشرقاوي.

هذه الكلمات في صلاته يقشعر جلده ولا يشك أنه كلام يقع عند الله بموقع عظيم وأنه يؤثر في ربه، ويحركه لذلك ويهزه وينخيه فكذبهم الله بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١]، وقوله تعالى مخاطباً موسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣].

نسبة العجز والضعف لله سبحانه وتعالى ومن ذلك ما ذكروه في توراتهم من أن الله تصارع مع يعقوب وهذا مخالف لصريح المنقول والمعقول.

نسبة الزنا والفاحشة للأنبياء وقد سبق أن بينت ما رموا به لوطاً عليه السلام وذلك عند حديثنا عن بيان ابن القيم لموقف اليهود من أنبيائهم من هذا البحث.

وفيها أن الله تجلى لموسى في سيناء وقال له بعد كلام كثير أدخل يدك في حجرك وأخرجها مبروصة كالثلج[1] وينقد ابن القيم هذا النص مبيناً أن الله سبحانه لم يتجل لموسى وإنما أمره أن يدخل يده في جيبه وأخبره أنها تخرج بيضاء من غير سوء أي من غير برص[2].

وفيها: «أن هارون هو الذي صاغ لهم العجل»[3] ويعتبر ابن القيم أن هذا زيادة وافتراء في كلامهم لأن هارون هو اسم السامري الذي صاغه، وليس هو بهارون أخي موسى[4].

وفيها: «أن الله قال لإبراهيم إذبح ابنك بكرك اسحاق»[5]. ويعتبر ابن القيم أيضاً

---

(١) الخروج (٤/ ٦).

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤١٧) تحقق د.محمد الحاج

(٣) الخروج (٣٢/ ٢-٤).

(٤) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤١٧) نفس المحقق.

(٥) التكوين (٢٢/ ١-١٣)

أن اسم إسحاق في هذا النص من زيادتهم وافترائهم وبهتهم وجمعهم بين النقيضين لأن بكره هو إسماعيل وأما إسحاق فقد بشر به على الكبر بعد قضية الذبح[١].

ومما أورده ابن القيم مدعماً لقوله في إثبات تحريف التوراة اعتراف اليهود أن السبعين كاهناً اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفاً من التوراة وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذين كانوا تحت قهرهم حيث زال الملك عنهم ولم يبق لهم ملك يخافونه ويأخذ على أيديهم، وقد استدل ابن القيم من هذا التبديل الذي قاموا به أن من رضي بتبديل موضع واحد من كتاب الله، فلا يؤمن منه تحريف غيره[٢].

ما ذكره ابن القيم من أن اليهود يقرون أن السامريين حرفوا مواضع في التوراة وبدلوها تبديلاً ظاهراً وزادوا ونقصوا والسامريون يدعون تدعي ذلك عليهم، فهذه المنازعات تدل على أن كلاً منهما قام بتحريف التوراة بالفعل[٣].

هذه الأمثلة التي قام ابن القيم بتحليلها ونقدها وردها بآيات القرآن الكريم وإثبات تحريفها من خلال ما قالوه واعترفوا به أنفسهم هي غيض من فيض وإنما اكتفيت بذكر بعضها للدلالة على منهج ابن القيم الجامع في نقده ورده على افتراءاتهم من خلال تحليله الذي ظهر فيه بغيرته على دينه وحرصه على حماية سياجه من كيد أمة الغضب فقد كان رحمه الله بارعاً في رد شبهاتهم وإثبات تحريفاتهم فرحمه الله رحمة واسعة.

وننهي حديثنا بإجمال قول ابن القيم في رأي علماء المسلمين الذين اختلفت نظراتهم في كيفية تحريف التوراة وفي هذا يقول ابن القيم: «وقد اختلفت أقوال الناس

---

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤١٧) نفس المحقق.

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤١٦).

(٣) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٤١٦).

في التوراة التي بأيديهم: هل هي مبدلة؟ أم التبديل والتحريف وقع في التأويل دون التنزيل؟»[1].

وقد أورد ابن القيم رحمه الله ثلاثة أقوال في هذه المسألة ولم يرجح واحداً منها سوى أنه وصفها بقوله: «ثلاثة أقوال طرفين ووسط»[2] وسأذكر رأيه رحمه الله في هذه المسألة من خلال حديثه عن التوراة الموجودة اليوم وإليك الأقوال الثلاثة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله في كتابه إغاثة اللهفان[3].

القول الأول (لطائفة الطرف الأول)[4]:

وقد أفرط وزعم أصحاب هذا القول حينما قالوا إن التوراة كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة، ليست هي التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، وتعرض هؤلاء لتناقضها، وتكذيب بعضها البعض، وقد غلا بعضهم فجوز الاستجمار بها من البول.

القول الثاني (لطائفة الطرف الثاني): وهم من أئمة الحديث والفقه والكلام.

قالوا بأن التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل وهذامذهب أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري قال في صحيحه: «يحرفون: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى ولكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله» وهذا اختيار الرازي في

---

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣٢١) تحقيق طه سعد.

(٢) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣٢١) تحقيق طه سعد.

(٣)نفس المرجع (ص٣٢١-٣٢٣) نفس المحقق.

(٤) ومن علماء هذا الطرف القائلين به ابن حزم في كتابه (الفصل) والسموأل بن يحيى في كتابه إفحام اليهود.

تفسيره وحجتهم كما ينقلها ابن القيم رحمه الله: «أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها، وانتشرت جنوباً وشمالاً، ولا يعلم عند نسخها إلا الله تعالى، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ بحيث لا يبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة مغيرة، والتغيير على منهاج واحد وهذا مما يحيله العقل ويشهد ببطلانه، فقد قال الله لنبيه ﷺ محتجاً على اليهود بها: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:٩٣]، قالوا: وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم، ولم يمكنهم تغييرها من التوراة، ولهذا لما قرأوها على النبي ﷺ وضع القارئ يده على آية الرجم، فقال له عبدالله بن سلام: «إرفع يدك عن آية الرجم» فرفعها فإذا هي تلوح تحتها، فلو كانوا قد بدلوا ألفاظ التوراة لكان هذا من أهم ما يبدلونه.

القول الثالث (لطائفة الوسط): ومنهم شيخ الإسلام (ابن تيمية)

وقالوا: قد زيد فيها، وغير ألفاظ يسيرة منها، ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه، والتبديل في اليسير منها جداً، قال ابن القيم: «وممن اختار هذا القول شيخنا في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)، وقد أورد ابن القيم حجة شيخه التي استدل بها على هذا القول بقول ابن تيمية: «وهذا كما في التوراة عندهم أن الله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم عليه السلام: «إذبح ولدك بكرك، ووحيدك إسحاق)، «ووحيدك إسحاق» زيادة منهم في لفظ التوراة، حيث بين ابن تيمية أن هذه الزيادة باطلة من عشرة أوجه[1].

(١) وقد ذكر ابن القيم العشرة أوجه التي أوردها ابن تيمية في كتابه، (إغاثة اللهفان) (٢/ ص٣٢٣-٣٢٥) لمن أراد الاطلاع عليها لأن ما يهمنا هو بيان الزيادة المتمثلة في لفظة (إسحاق) كشاهد ودليل على ما ذهب إليه أصحاب هذا القول.

رأي ابن القيم رحمه الله :

وقد تمثل رأيه رحمه الله في قوله: «فهذه التوراة التي بأيديهم في الحقيقة كتاب عـزرا وفيها كثير من التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، ثم تداولتهـا أمـة قد مزقها الله كل ممزق وشتت شملها فلحقها ثلاثة أمور:[1]

أحدها: بعض الزيادة والنقصان: (ودليل الزيادة ما ذكـر أن لفظـه إسـحاق زيـادة منهم في لفظ التوراة، أما ما جاء كدليل على النقصان فكثير جداً ومن ذلك مـا أورده رحمة الله الهندي في كتابـه إظهـار الحـق (ص٥١٣)، ومـا بعدهـا مـن تحقيـق د.محمـد ملكاوي ومن أمثلة ذلك ما جـاء في التـوراة في سـفر الخـروج (٦/ ٢٠) فولـدت لـه هارون وموسى ومريم أختهما فلفظ مريم اختهما سقط من العبرانية من طبعـتي سـنة (١٨٤٤م) وسنة (١٨٦٥م) وما بعدها).

والثاني: اختلاف الترجمة، ومثال ذلك أنهم سمعوا في التوراة «يكون ثمار أرضك تحمل إلى بيت الله ربك لا تنضج الجدي بلبن أمه» والمراد مـن ذلـك كمـا ينقلـه ابـن القيم عن السموأل[2] أنهم أمروا عقيب افتراض الحج عليهم أن يستصحبوا معهم إذا حجوا أبكار أغنامهم وأبكار مستغلات أرضهم لأنه كان فرضت عليهم قبل ذلك أن تبقى سخولة الغنم والبقر وراء أمها سبعة أيام وفي اليوم الثـامن فصـاعداً يصلـح أن تكون قرباناً فأشار في هذا النـص بقولـه: «لا ينضـج الجـدي بلـبن أمـه» إلا أنهـم لا يبالغون في إطالة مكث بكور أولاد البقر والغنم وراء أمها بل يسـتصحبون أبكـارهم اللاتي عبرت سبعة أيام منذ ميلادهن معهم إذا حجوا ليتخذوا منها القرابـين فتوهـم المشايخ البله المترجمون لهذه الآية أن المشرع يريد بالانفتاح هذا انفتاح الطبيخ في القدر وأنهم نهوا أن يطبخوا لحم الجدي باللبن.

---

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ص٣٢٦-٣٢٩) تحقيق طه سعد.

(٢) السموأل بن يحيى (إفحام اليهود) (ص١٤١-١٤٢)، وعند ابن القيم في (إغاثة اللهفان) (٢/ ٣٢٩).

والثالث: اختلاف التأويل والتفسير، ومن أمثلة ذلك:

أ- قولهم في التوراة «ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوه وللكلاب ألقوه»[1] حيث يعتبر الربانيون أكل لحم الطريفا محرم ويفسرون الطريفا بأنه الحيوان الذي ذبحوه وقد وجدوا رئته فيها ثقب أو ملتصقة ببعضها أو بالقلب حتى لو كان هذا الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة اعتبروا هذه الذبيحة رجس ونجس وحرام.

ب- قولهم في التوراة «نبياً أقيم لهم من وسط أخوتهم مثلك» وقد أولوا هذا النص لأنه لم يمكنهم أن يبدلوا تنزيله، فقالوا أن هذه البشارة بنبي من بني إسرائيل حيث اعتبروا أن إخوتهم وإخوة القوم هم بنو أبيهم وهو بنو إسرائيل، والحقيقة أن هذا تأويل فاسد لأنه لو كان النبي من بني إسرائيل لقال نبياً من أنفسهم.

جـ- قولهم في التوراة: «جاء الله تعالى من طور سيناء، وأشرق من سعير، واستعلن من جبال فاران» وقد أولوا هذا النص معتبرين جبال فاران على أنها جبال الشام والحقيقة أنها تعني جبال مكة وهي بشارة بنبوة محمد ﷺ وقد تقدم أيضاً بيان تحريفهم لهذا النص، وهو من تحريف التأويل[2]. حيث أن اليهود لا يعترفون بفاران على أنها مكة ويقولون أنها أرض الشام وهذا من بهتهم وتحريفهم لأن إسماعيل عليه السلام لما فارق أباه سكن في برية فاران وهي جبال مكة وعندهم في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران.

المطلب الثالث

بيان ابن القيم لطرق التحريف عند اليهود

بين بعض العلماء طرق التحريف التي استخدمها أحبار بني إسرائيل في التوراة،

---

(١) التوراة، الخروج (٢٢/ ٣٠).

(٢) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ص٣٢٦-٣٢٩) تحقيق. طه سعد.

وقد استدلوا على ذلك بما ورد في القرآن الكريم من آيات تفضح ألاعيبهم وأنواع تحريفاتهم وقد استدل ابن القيم رحمه الله بهذه الآيات ثم بين طرق التحريف عندهم، حيث أجمل هذه الطرق بأمور ثلاثة سبق أن ذكرناها وهي:

أ- تحريف بالزيادة والنقصان.

ب- تحريف باختلاف الترجمة.

ج-تحريف باختلاف التأويل والتفسير.

وقد فصل ابن القيم رحمه الله هذه الأمور بطرق عديدة بحيث تأخذ أشكالاً مختلفة وجعلها في خمسة طرق، إلا أنه رحمه الله قد ذكر آيات القرآن الكريم التي استدل بها على هذه الطرق في البداية ثم بعد ذلك عدد طرق التحريف، ونحن إن شاء الله سنعمل على دمج هذا الموضوع بحيث نذكر كل وسيلة من وسائل التحريف من خلال استرشاد واستدلال ابن القيم على ذلك.

ومن هذه الأشكال والطرق التي فصلها ابن القيم وذكرها في خمسة طرق ما يلي:[١]

وقبل أن نبدأ بذكرها ننبه إلى أن ابن القيم رحمه الله قد اكتفى بذكرها وذكر الآيات دون تعليق أو تفسير، لذا سنشرح بعض الأمور إن اقتضى الحال.

يقول ابن القيم: «وأما التحريف فقد أخبر الله سبحانه وتعالى عنه في مواضع متعددة وكذلك ليّ اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه فهذه خمسة أمور»[٢].

---

(١) ورد هذا الموضوع عند ابن القيم في كتابه (هداية الحيارى) (ص٣١١-٣١٣) تحقيق د.محمد الحاج.

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص٣١٢)، نفس المحقق.

أحدها لبس الحق بالباطل:

- وهو خلطة بحيث لا يتميز الحق من الباطل قال تعالى: ﴿يأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمرن:71].

ومن الواضح أن بني إسرائيل -الكهنة منهم وغيرهم- كانوا يخلطون الحق بالباطل ليضللوا الناس ويصرفونهم عن الحق، ولكي يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وقد ذكر د.شتيوي في كتابه[1] «أن بني إسرائيل كانوا يجعلون الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، فإذا جاءهم المحسن برشوة أخرجوا له كتاب الله ، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق، فالكهنة كانوا يخرجون التوراة لمن جاءهم برشوة كشاهد يقرهم على ما يفعلون، فإن جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس له حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق» وفي ضوء ما سبق من إلباس الحق بالباطل يقول ابن عباس: «لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب»[2]. وذكر الزمخشري بأنهم كانوا يكتبون في التوراة ما ليس فيها[3]، ومثال ذلك اتهام هارون عليه السلام بأنه الذي صنع لهم العجل وأمرهم بعبادته[4].

الثاني كتمان الحق:

- وكتمان الحق مرتبط أيضاً بإلباس الحق بالباطل كما في الآية التي استشهد بها ابن القيم وبيناها قبل قليل، وقد أورد ابن القيم أيضاً قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [البقرة:159]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا

---

(1) شتيوي، د. محمّد شلبي (التوراة دراسة وتحليل) (ص75).

(2) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، (تفسير القرآن العظيم) (1/ 84).

(3) الزمخشري، محمود بن عمر، (تفسير الكشاف) (1/ 369).

(4) شتيوي، د. محمد شلبي (التوراة دراسة وتحليل) (ص75).

أنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٤].

وبنو إسرائيل عندما يكتمون الحق لا يريدون إلا تلبية رغباتهم الفاسدة وإخضاع آيات الله لأهوائهم الباطلة فالآيات التي يرون فيها منفعة تعود عليها يقرونها وأما غير ذلك فإنهم ينكرونها ويكتمون الحق الذي فيها، قال تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿..وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤١-٤٢].

وإن من أهم أمثلة كتمانهم الحق إنكارهم لصفة محمد ﷺ في التوراة مع العلم أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقد نقل البار في كتابه [١] ما روته صفية [٢] بنت حيي بن أخطب [٣] زعيم اليهود وزوج النبي ﷺ بعد أن أسلمت أن عمها سأل أباها عن النبي ﷺ عندما قدم المدينة قائلاً: «أهو هو النبي الذي كنّا ننتظر؟» فقال حيي بن أخطب: «والله إنه لهو النبي ولكننا والله لا نؤمن به».

---

(١) البار، د.محمد علي، (المدخل لدراسة التوراة) (ص١٢٠-١٢١).

(٢) صفية: وهي صفية بن حيي بن أخطب من الخزرج من أزواج النبي ﷺ كانت في الجاهلية تدين باليهودية، وهي من أهل المدينة تزوجها سلام بن مشكم القرظي ثم فارقها فتزوجها كنانة بن الربيع النضري وقتل عنها يوم خيبر، وأسلمت فتزوجها رسول الله ﷺ لها في كتب الأحاديث (١٠) أحاديث، توفيت في المدينة سنة خمسين، العسقلاني، أحمد بن علي (الإصابة في تمييز الصحابة) (٨/ ٢١٠) تحقيق عادل عبدالموجود وعلي معوض.

(٣) حيي ابن أخطب: هو من سبط لاوي بن يعقوب ثم من ذرية هارون بن عمران، جاهلي من الأشداء العتاة كان ينعت بسيد الحاضر والبادي، أدرك الإسلام وآذى المسلمين فأسروه يوم قريظة ثم قتلوه، الزركلي، خير الدين (الأعلام) (٢/ ٢٩٢).

وقد بينت سابقاً ما نقله ابن القيم رحمه الله من كتمانهم لصفة محمد ﷺ في كتبهم حسداً منهم أن يظهر من العرب نبي وإذا قيل لهم أنه بصفاته في توراتكم كتموا ذلك وقالوا ليس هو ونحن ننتظره.

الثالث:

- اخفاؤه وهو قريب من كتمانه، أما الفرق بينهما فقد بينه الدكتور البار والدكتور شتيوي[1]، معتبرين أن الكتمان يكون للأمر العظيم مثل نبوة محمد ﷺ حقداً وكراهية لهذا الأمر أما الإخفاء فهو للأمر الذي فيه خزي لهم أو أمر سيء وقع بهم فهم يخفونه لئلا يفتضح أمرهم بين الناس ومن أمثلة ذلك إخفاءهم حكم الرجم للزاني والزانية في توراتهم وقد فضحهم الله على يد عبدالله بن سلام رضي الله عنه، وقد سجل القرآن الكريم على بني إسرائيل أنهم كانوا يخفون كثيراً من التوراة وقد استدل ابن القيم بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة:١٥].

الرابع:

- تحريف الكلم عن مواضعه وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه.

وفي هذا النوع يعمد بنو إسرائيل لوضع كلمة مكان كلمة أو جملة مكان جملة قال بعض العلماء وهذا هو تحريف التبديل وقد يكون بزيادة كلمة أو جملة وهو تحريف بالزيادة وقد يكون بإسقاط كلمة أو جملة وهو تحريف بالنقص[2]، أما تحريف معناه فيكون بصرف المعنى إلى معنى آخر غير مقصود[3]، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن

---

(١) د.البار، محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص١٢١). د.شتيوي، محمد شلبي، (التوراة دراسة وتحليل) (ص٨٠).

(٢) شتيوي، د.محمد شلبي، (التوراة دراسة وتحليل) (ص٨٣) والبار، د.محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص١٢١).

(٣) البار، د.محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص١٢١).

مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ [المائدة:١٣]، وقال تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة:٤١]، يقول د.شتيوي[١] في معرض حديثه عن دلالة هذه الآيات على التحريف أن الحرف (عن) في الآية هو للمكان، ويفيد رفع شيء عن شيء، أما لفظ (بعد) ظرف مكان، وكلا اللفظين يرجحان أن يكون التحريف بمعنى التبديل لا التأويل، وقد نقل د.شتيوي ما جاء في كتاب الإنصاف[٢] عن معنى التحريف في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة:٤١] أي ينقلونه عن الموضع الذي وضعه الله فيه، فصار وطنه ومستقره إلى غير الموضع فبقي كالغريب المتأسف عليه[٣].

الخامس:

(ليّ اللسان به ليلتبس على السامع اللفظ المنزل بغيره قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨].

(وقد فسر الزمخشري[٤] ليّ اللسان في قوله تعالى: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ﴾ بالفتل واللف، يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف.

وقد مثل الله سبحانه وتعالى للتحريف عن طريق ليّ اللسان بقول اليهود للنبي ﷺ ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء:٤٦]، أي اسمع ونحن ندعو عليك بعدم السماع، وكقول

---

(١) شتيوي، د.محمد شلبي (التوراة دراسة وتحليل) (ص٦٦-٦٧)

(٢) والكتاب لـ أحمد بن محمد المنير الاسكندري المالكي (الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) وقد بين الدكتور شتيوي أن ما نقله من هذا لكتاب مطبوع أسفل تفسير الكشاف -دار المعرفة -لبنان- بيروت (ج١/ ص٥٣١).

(٣) شتيوي، د.شلبي (التوراة دراسة وتحليل) (ص٦٧).

(٤) الزمخشري، (الكشاف) (١/ ٤٣٩) ترتيب وضبط محمد عبدالسلام شاهين.

القائل للرجل يسبه: «إسمع لا أسمعك الله»[1] وقولهم ﴿رَاعِنَا﴾ [النساء:٤٦]، وظاهرها حسن وباطنها سيء لما يتهمونه ﷺ بالرعونة وهذا من لي اللسان باستخدامهم كلمات ظاهرها حسن وباطنها سيء[2] حيث أن قولهم (غير مسمع) جاءت موضع لا أسمعت شراً و(راعنا) مكان (انظرنا) وذلك من باب فتل اللسان وليّه استهزاء برسول الله محمد ﷺ ولكن الله سبحانه فضحهم وبين باطلهم بتسجيل هذا التحريف عليهم في القرآن الكريم إلى يوم القيامة.

وواضح من خلال ذكر ابن القيم رحمه الله لطرق التحريف عنده أنه طابق هذه الطرق لآيات من كتاب الله سبحانه فكان نقده رحمه الله لهذه الطرق بما استرشده واستدل به من القرآن الكريم وهذه الطريقة كثيراً ما كان يستخدمها ابن القيم في معرض رده وإنكاره على أهل الكتاب وقد كثرت استعانته بآيات الكتاب الحكيم أثناء نقده للوقائع التي تحكي عنها التوراة ويظهر له فيها الإفتراء والكذب على الله سبحانه وتعالى مقترناً ذلك بتمسك اليهود أنها من عند الله عناداً منهم وكذباً ولذلك أراد ابن القيم أن يظهر فضيحتهم ويكسر شوكتهم وعنادهم من خلال رده من واقع آيات الله التي تنطق بالحق عليهم.

(١) الطبري، محمد بن جرير (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢/ ٤٧٥).

(٢) الطبري (جامع البيان) (٢/ ٤٧٦)، والبار، د.محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص١٢٢).